

علو الهمة في التوبة

✍ اعلم -يا أسير الخطايا والذنوب، يا مَن لو كانت لذنوبه رائحةٌ، لضجَّت من رائحته المشام لُخبث آثامه والعيوب-، أن مَنزل التوبة ومقامَها أولُ منازل السالكين إلى الله وآخرُها، لا يفارقُه العبدُ السالكُ ولا يزالُ فيه إلى المات. وإنِ ارتحل إلى منزلٍ آخرَ ارتحل به واستصحبه معه ونزل به، فالتوبةُ هي بداية العبد ونهايته.

فأُفٍّ للذنوب! ما أقبح آثارَها! وما أسوأ أخبارها.

«سبحان الله رب العالمين! لو لم يكن في ترك الذنوب والمعاصي إلَّا إقامةُ المروءة، وصَوْن العِرْض، وحفظُ الجاه، وصيانة المال -الذي جعله الله قِوَامًا لمصالح الدنيا والآخرة-، ومحبَّة الخلْق، وصلاحُ المعاش، وراحة البدن، وقوَّةُ القلب، وطِيبُ النَّفْس، ونعيمُ القلب وانشراحُ الصدر، والأمنُ من مخاوف الفُسَّاق والفجَّار، وقلَّةُ الهمِّ والغمِّ والحُزن، وعِزُّ النفس عن احتمال الذُّلِّ، وصونُ نور القلب أن تُطفئَه ظلمةُ المعصية، وحصولُ المخرج له ممَّا ضاق على الفُسَّاق والفجَّار، وتيسيرُ الرزق من حيث لا يحتسب، وتيسير ما عسر على أرباب الذنوب والمعاصي وتسهيل الطاعات عليه وتيسيرُ العِلم، والثناءُ الحسن في الناس، وكثرةُ الدعاء له، والحلاوةُ التي يكتسبُها وجهُه، والمهابةُ التي تُلْقَى له في قلوب الناس، وانتصارهم وحميَّتُهم له إذا أُوذي وظُلِمَ، وذبُّهم عن عرْضِه إذا اغتابه مغتابٌ، وسرعةُ إجابة دعائِه، وزوالُ الوحشة التي بينه وبين الله، وقُرْب الملائكة منه، وبُعْدُ شياطين الإنس والجنِّ منه، وتنافُسُ الناس على خدمتِهِ وقضاءِ حوائجه، وخِطبتُهم لمودَّتِه وصحبته، وعدمُ خوفه من الموت، بل

يفرحُ به لقدومه على ربِّه ولقائه له ومصيره إليه، وصِغَر الدنيا من قلبه، وكِبر الآخرة عنده، وحرصُه على المُلك الكبير والفوزِ العظيم فيها، وذوقُ حلاوة الطاعة، ووَجْدُ حلاوة الإيمان، ودعاءُ حملة العرش ومَن حوله من الملائكةَ له، وفرَحُ الكاتبين به، ودعاؤهم له كل وقت، والزيادة في عقله وفهمه وإيمانه ومعرفته، وحصول محبة الله له وإقباله عليه، وفرحِه بتوبته، وهذا يجازيه بفرح وسرور لا نسبة له إلى فرحه وسروره بالمعصية بوجه من الوجوه.

فهذه بعضُ آثار ترك المعاصي في الدنيا.

فإذا مات تلقَّتْه الملائكةُ بالبشرى من ربِّه بالجنة، وبأنه لا خوفٌ عليه ولا حَزَن، وينتقلُ من سجن الدنيا وضيقِها إلى روضةٍ من رياض الجنة، ينعَمُ فيها إلى يوم القيامة، فإذا كان يومُ القيامة كان الناسُ في الحرِّ والعَرَقِ، وهو في ظلِّ العرش، فإذا انصرفوا من بين يدَي الله أُخذ به ذات اليمين مع أوليائه المتقين وحزبه المفلحين ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾ [الجمعة]»[1].

---

(١) «الفوائد» لابن قيم الجوزية.

فضل التوبة

(١) مقامُ التوبة مقامٌ رفيع، فهو أولُ الأمر وآخرُه، والدينُ كلُّه داخلٌ في مسمَّاها:

* «التوبةُ هي بداية العبد ونهايته. وحاجتُه إليها في النهاية ضروريَّة. كما أن حاجتَه إليها في البداية كذلك. وقد قال الله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ٣١﴾ [النور]، وهذه الآيةُ في سورةٍ مدنيَّة، خاطَب اللهُ بها أهلَ الإيمان وخِيارَ خلقِه أن يتوبوا إليه، بعد إيمانهم وصبرهم وهجرتهم وجهادهم»(١).

* وقال تبارك وتعالى في وصف التائبين ﴿ٱلتَّٰٓئِبُونَ ٱلْعَٰبِدُونَ ٱلْحَٰمِدُونَ ٱلسَّٰٓئِحُونَ ٱلرَّٰكِعُونَ ٱلسَّٰجِدُونَ ٱلْأٓمِرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱلْحَٰفِظُونَ لِحُدُودِ ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ١١٢﴾ [التوبة].

فحفظُ حدود الله جزءٌ من التوبة، والتوبةُ هي مجموع هذه الأمور.

فالتوبةُ هي حقيقة دينِ الإسلام، والدينُ كلُّه داخلٌ في مسمَّى «التوبة»، وبهذا استحق التائبُ أن يكون حبيبَ الله، فإن الله يحبُّ التوَّابين ويحب المتطهِّرين. وإنما يحبُّ اللهُ مَن فعل ما أمر به، وترَك ما نهى عنه، فإذًا «التوبة» هي الرجوعُ مما يكرهه اللهُ ظاهرًا وباطنًا إلى ما يحبه ظاهرًا وباطنًا.

ويدخل في مسمَّاها «الإسلام، والإيمان، والإحسان». وتتناول جميع المقامات، ولهذا كانت غايةَ كل مؤمن، وبدايةَ الأمر وخاتمته، وهي الغاية

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٨).

التي وُجِد لأجلها الخَلْق. والأمر والتوحيد جزءٌ منها. بل هو جزؤها الأعظم الذي عليه بناؤها».

* قال تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾﴾ [التوبة].

«وأكثرُ الناس لا يعرفون قدْرَ «التوبة» ولا حقيقتَها، فضلًا عن القيام بها علمًا وعملًا وحالًا. ولم يجعل اللهُ تعالى محبته للتوَّابين إلا وهم خواصُّ الخلق لديه.

ولولا أنَّ «التوبة» اسمٌ جامع لشرائع الإسلام وحقائقِ الإيمان، لم يكن الربُّ تعالى يفرحُ بتوبة عبده ذلك الفرحَ العظيم. فجميعُ ما يتكلم فيه الناسُ من المقامات والأحوال هو تفاصيل «التوبة» وآثارها»(١).

(٢) التوبة ومغفرة الذنوب صفة من صفات الله عَزَّ وَجَلَّ:

مغفرةُ الذنوب هي الرحمة والفضل من الله، وهي صفةٌ من صفاته، والغفورُ، والرحيم، والرحمن، وقابلُ التوب: من أسمائه.

* قال تعالى: ﴿۞ نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الحجر].

* وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾﴾ [البروج].

* وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴿٥٨﴾﴾ [الكهف].

* وقال تعالى: ﴿غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٣﴾﴾ [غافر].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٦- ٣٠٧).

* وقال تعالى: ﴿وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾﴾ [المدثر].

* وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِۚ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْۖ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [النجم].

* وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّۖ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۗ أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ﴿٥﴾﴾ [الزمر].

«إن أسماءه الحسنى تقتضي آثارَها اقتضاءَ الأسباب لمسبباتها، فاسمُ «الرحيم» يقتضي مرحومًا. وكذلك أسماء «الغفور، والعفوِّ، والتواب، والحليم» يقتضي مَن يغفرُ له، ويتوبُ عليه، ويعفو عنه، ويحلُم. ويستحيلُ تعطيلُ هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماءٌ حسنى وصفاتُ كمال، ونعوتُ جلال، وأفعالُ حكمةٍ وإحسانٍ وجود، فلابد من ظهور آثارها في العالَم، وقد أشار إلى هذا أعلمُ الخلق بالله صلوات الله وسلامه عليه، حيث يقول: «**لو لم تُذنبوا، لَذهب اللهُ بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون، ثم يستغفرون فيغفر لهم**».

وأنت إذا فرضتَ الحيوان بجملته معدومًا، فمَن يرزقُ الرزاقُ سبحانه؟ وإذا فرضت المعصية والخطيئة منتفيةً من العالَم، فلمنْ يغفر؟ وعمَّن يعفو، وعلى من يتوبُ ويحلُم؟ وإذا فرضتَ الفاقاتِ كلَّها قد سُدَّتْ، والعبيدَ أغنياءَ معافَون، فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابةُ وشهود الفضل والمنة، والتخصيصُ بالإنعام والإكرام؟.

فسبحان مَن تعرَّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرُّفات، ودلَّهم عليه

بأنواع الدلالات، وفَتح لهم إليه جميعَ الطرقات، ثم نَصب إليه الصراط المستقيم، وعرَّفهم به ودلَّهم عليه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال].

إن الله ﷻ إنما خلَّى العبدَ والذنب؛ ليعرفَ عزَّته في قضائه، وبِرَّه في ستره، وحِلمَه في إمهال راكبه، وكرمَه في قبول العذر منه، وفضلَه في مغفرته، فيُحدِثُ له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته، وحكمته، ورحمته، ومغفرته وعفوه، وحلمِه وكرمه، وتُوجِبُ له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء، لا تحصلُ بدون لوازمها ألبتة. ويعلمُ ارتباطَ الخلق والأمر، والجزاءِ والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجَبُ الأسماء والصفات، وأثرُها في الوجود، وأن كل اسمٍ وصفة مقتضٍ لأثره وموجبه، متعلقٌ به لا بد منه.

وهذا المشهدُ يُطلِعُه على رياضٍ مُونِقةٍ من المعارف والإيمان، وأسرارِ القدَر والحكمة، يَضيقُ عن التعبير عنها نطاقُ الكَلِم»[(١)].

إن للذنب كسرةً خاصةً تحصلُ للقلب، لا يشبهُها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصلُ بجوعٍ ولا رياضة، ولا حبٍّ مجرد، وإنما هي أمرٌ وراءَ هذا كله، تَكسِرُ القلب بين يدي الرب كسرةً تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقتْه بين يديْ ربِّه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيِّده، فأُخذ، فأُحضِر بين يديه، ولم يجدْ مَن يُنجيه من سَوطه، ولم يجدْ منه بدًّا، ولا عنه غَناءً، ولا منه مهربًا، وعلِم أن حياته وسعادتَه وفلاحَه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علِم إحاطةَ سيِّده بتفاصيل جناياته.. هذا مع

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤ ـ ٢٠٦).

حبِّه لسيده، وشدَّة حاجته إليهِ، وعلمه بضعفه وعجزه وقوة سيِّده، وذلِّه وعزَّة سيده.

فيجتمع من هذه الأحوال كسرةٌ وذلَّةٌ وخضوع، ما أنفعها للعبد، وما أجدى عائدتها عليه، وما أعظم جبره بها، وما أقربه بها من سيده، فليس شيءٌ أحبَّ إلى سيده من هذه الكَسرة والخضوع والتذلل والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

□ فلله ما أحلى قولَه في هذا الحال: «أسألك بعزِّك وذلِّي إلَّا رحمتني. أسألك بقوَّتك وضعفي، وبغناك عنِّي وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبةُ الخاطئةُ بين يديك، عبيدُك سواي كثير، وليس لي سيدٌ سواك، لا ملجأَ ولا منجى منك إلَّا إليك، أسألُك مسألةَ المسكين، وأبتهلُ إليك ابتهالَ الخاضع الذليل، وأدعوك دعاءَ الخائف الضرير، سؤالَ مَنْ خضعت لك رقبتُه، ورَغِم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذلَّ لك قلبُه».

يا من ألوذُ به فيما أُؤَمِّلُهُ ... ومنْ أعوذُ به مما أحاذرهُ

لا يجبرُ الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يَهِيضون عظمًا أنت جابِرُهُ (١)

(٣) كتب اللهُ كتاب الرحمة بيده، ليدلَّ على عِظَم المغفرة:

إن اللهَ خلق الكائناتِ بـ«كن» فيكون، إلَّا أشياءَ؛ لشرفها وكرامتها على الله، خلقها بيده، فخلق آدمَ بيده، وخلق جنةَ عدْنٍ بيده، وكتب التوراة لموسى بيده، وكتب كتاب الرحمة بيده.. فما أعظمَ كرمَ الرحمن!.

• قال رسولُ الله ﷺ: «كَتب ربُّكم على نفسه بيده ـ قبل أن يخلق

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٦ - ١٨٧).

الخلق ـ: رحمتي سبقت غضبي»(١).

● وقال رسولُ الله ﷺ: «**لما قضى اللهُ الخلقَ، كتب في كتابه ـ فهو عنده فوقَ العرش ـ: إن رحمتي غلبت غضبي**»(٢).

* والمغفرة رحمة: قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ ثُمَّ ٱزْدَادُوا۟ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًۢا ﴿١٣٧﴾﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران].

دعوةُ الله إلى المغفرة:

دعا الله إلى الجنة.. ودعا إلى المغفرة.. فيا لِعظمِ المغفرة حين يساوي اللهُ بين الدعوة إلى الجنة والدعوة إليها.. وهي المقدمةُ للجنة.. سارعوا.. سابقوا.

* قال تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٨٩) عن أبي هريرة، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٤٧٥).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٤٦٦) والبخاري (٣٠٢٢) ومسلم (٢٧٥١) عن أبي هريرة.

مُشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ ﴾ [البقرة].

* وقال تعالى: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾ ﴾ [الحديد].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾ [آل عمران].

أفق وضيء أفق المغفرة.. وغاية تستحق السباق.

سجع على قوله تعالى: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾:

لقد دعاكم إلى البِدار مولاكم، وفتح بابَ الإجابة ثم استدعاكم، ودلَّكم على منافعكم وهَداكم، فالتفتوا عن الهوى فقد آذاكم، وحُثُّوا حَزْمَ جَزْمكم، وصُبُّوا ذَنوب الحُزن على ذنبكم، ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

بابُه مفتوحٌ للطالبين، جنابُه مبذولٌ للراغبين؛ وفضلُه ينادي: يا غافلين، وإحسانُه ينادي الجاهلين، فاخرُجوا من دائرة المذنبين، وبادِروا مبادرةَ التائبين، وتعرَّضوا لنسمات الرحمة تخلُصوا من كرْبكمْ، ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾.

كم شُغلتم بالمعاصي فذهب الفرْض، وبارزتم بالخطايا ونسيتمُ العرْض، حضَّكم فما نفع الحضّ، طالت آمالُكم قد ذهب الشبابُ الغض، رأيتم موتَ القُرناء وقد أُنذر البعضُ بالبعض، ففرُّوا إلى الله من سجن الهوى فقد ضاق طوله والعرض، ﴿ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾ [الزمر].

إنها الرحمةُ الواسعةُ التي تسعُ كل معصية -خلا الشرك- كائنةً ما كانت، وإنها الدعوةُ للأوْبة. دعوةُ العصاة المسرفين الشاردين المبعَدين في تيه الضلال. دعوتُهم إلى الأمل والرجاء والثقة بعفو الله. إن الله رحيم بعباده.

ليس بين العبد وقد أسرف في المعصية، ولَجَّ في الذنب، وأبَقَ عن الحِمى، وشَرَد عن الطريق، ليس بينه وبين الرحمة الندية الرخيَّة، وظلالها السمْحة المحيية، ليس بينه وبين هذا كله إلَّا التوبة، التوبةُ وحدها، الأوبةُ إلى الباب المفتوح الذي ليس عليه بوَّابٌ يَمنع، والذي لا يحتاجُ من يلج فيه إلى استئذان.

* قال تعالى: ﴿ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحْسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ [الزمر].

الإنابةُ والإسلام، والعودةُ إلى أفياءِ الطاعة وظلال الاستسلام.. هذا هو كلُّ شيء.. بلا طقوسٍ ولا مراسم ولا حواجز، ولا وسطاءَ ولا شفعاء. مَن أراد الأوْبة من الشاردين فلْيَؤب، ومَن أراد الإنابةَ من الضالين فليُنب، ومن أراد الاستسلام من العصاة فلْيستسلم وليأت.. ليأتِ وليدخل، فالبابُ مفتوح، والفَيْء والظل والنَّدى والرخاء: كلُّه وراء الباب، لا حاجبَ دونه ولا حسيب! هيا هيا يا ابن النُّطف: ابسط بساطَ الحزن على رَماد الأسف، هيا والزمْ سُدَّة باب مولاك، واقرعْ بابه بقلبِك لا بظفرك؛ فإن أبوابَ الملوك لا تُقرع بالأظافير. نادِ بوجيب قلبك،

وواكِف دمْعِك: قد قدِم الغائب.

* قمْ في الدجى بلسان الذُّل وقل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهۡلَنَا ٱلضُّرُّ﴾ [يوسف: ٨٨].

هيا.. هيا قبل فوات الأوان ﴿مِن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلۡعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزمر] فما هنالك من نصير. هيا فإن النَّفس قد يخرج ولا يعود، وإن العينَ قد تطرِف ولا تطرفُ الأخرى إلَّا بين يدي مولاها. هيا قبل التحسُّر على فوات الفرصة، وعلى التفريط في حق الله، وعلى السخرية بوعيد الله: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزمر].

الفرصةُ ها هي ذي سانحة، ووسائلُ الهُدى ما تزال حاضرة، وبابُ التوبة ها هو ذا مفتوح.

أبوابُ العباد مغلقة.. وبابُه مفتوح لمن دعاه.

* فإذا كانت القيامة ﴿أَوۡ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلۡعَذَابَ لَوۡ أَنَّ لِي كَرَّةٗ فَأَكُونَ مِنَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر].

وهي أمنيةٌ في القيامة لا تُنال.. لا كَرَّةَ ولا رجوع.. وإنما دماءُ العين بعد الدموع.

«إن أهل النار لَيبكُون، حتى لو أُجريت السفنُ في دموعهم جرت، وإنهم لَيبكون الدم»[1].

فما لك منها غيرُ ذكرى وحسرةٍ ... وتسألُ عن ركبانها أين يمَّموا

---

(١) حسن: رواه الحاكم (٤/٦٤٨) عن أبي موسى، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٠٣٢).

* هي فرصة واحدة، إذا انقضت لا تعود.. ستُسألون عنها مع التبكيت والترذيل: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْۚ أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَتۡكَ ءَايَٰتِي فَكَذَّبۡتَ بِهَا وَٱسۡتَكۡبَرۡتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٥٩﴾ [الزمر].

أخي: إن الذنوب لا ترعى حُرمة لذي فضل.

• عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعًا: «**نزل الحجر الأسود من الجنة وهو أشد بياضًا من اللبن فسوَّدَتْه خطايا بني آدم**»[1].

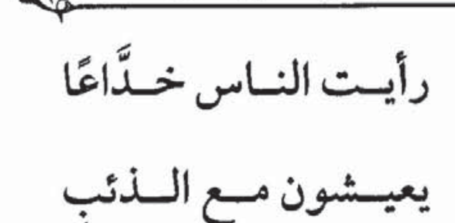
يا هذا، سوَّدتِ الخطايا الحجر وهو من الجنة، وأنت من التراب ومن الأرض، فانظر لنفسك، سوَّدته وهو صلْد، أفلا تنكس القلب إذا عصى وأصرَّ وهو من لحمٍ ودم!!.

* أما سمعت في بداية الزلل ﴿إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ﴾ [الأعراف]، وفي وسطه ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم﴾ [المطففين: ١٤]، وفي آخره ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ ٢٤﴾ [محمد: ٢٤].

أتبكي على معاصيك، والإصرار يضحك؟ أتخادع بالتوبة؟ وإنما تمكر بدينك..

---

(١) صحيح: قال ابن حجر في «الفتح» (٣/ ٥٤٠): «أخرجه الترمذي، وصححه، وفيه عطاء بن السائب وهو صدوق، لكن اختلط، وجرير ممن سمع منه بعد اختلاطه لكن له طرق أخرىٰ في «صحيح ابن خزيمة» فيقوىٰ بها». وصححه السيوطي، والألباني في «صحيح الجامع» رقم (٦٦٣٢)، و«تخريج المشكاة» رقم (٢٥٧٧).



رأيــت النــاس خــدَّاعًا   إلى جانـــب خـــدَّاعِ

يعيــشون مــع الــذئبِ   ويبكــون مــع الراعــي

□ قال محمد بن يحيى الذهلي –وهو من هو علمًا واتِّباعًا وصيانة وديانةً ورأسًا في الجرح والتعديل–: «تقدَّم رجلٌ إلى عالم، فقال: علِّمْني وأوجز، قال: لأُوجزَنَّ لك، إن الله أوحى إلى نبيٍّ من أنبيائه: قلْ لقومك: لو كانت المعصية في بيت من بيوت الجنة لأوصلتْ إليه الخراب»[1].

✍ انظر يا أخي إلى آيةٍ شريفة وأشرف حديث لأهل الشام.

آياتُ «الزُّمَر» التي مرَّت تغسل مرارات المعاصي، وتشهدُ لأطلاق المغفرة بأمور:

الأول: نداؤهم بعنوان العبودية، فإنها تقتضي المذلَّة، واقتضاؤها للترحُّم ظاهر.

الثاني: الاختصاصُ الذي تُشِعر به الإضافةُ إلى جَنابه تقريبًا من بابه، فإن السيد من شأنه أن يرحمَ عبده ويشفق عليه.

الثالث: تخصيصُ ضررِ الإسراف المشعرة به «على أنفسهم».. فضرر الذنوب عائد عليهم لا عليه سبحانه، فيكفي ذلك من غير ضرر آخر، كما في المثل: أحسِنْ إلى مَن أساء، كفى المسيءَ إساءتُه. فاستحقاقُ العقاب عقابٌ عند ذوي الألباب، فلو ضمِن اللهُ لهم التوبة، كفاهم همَّ الحياءِ منه.

الرابع: النهي عن القنوط مطلقًا عن الرحمة، فضلًا عن المغفرة وإطلاقها.

---

(١) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٢٨١- ٢٨٢).

الخامس: إضافةُ «الرحمة» إلى الاسم الجليل المحتوي على جميع معاني الأسماء على طريق الالتفات، فإن ذلك ظاهرٌ في سعتها، وهو ظاهرٌ في شمولها للتائب وغيره.

السادس: التعليل بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ ، فإن التعليل يحسُن مع الاستبعاد، وترْك القنوط من الرحمة مع عدم التوبة، أكثر استبعادًا من تركه مع التوبة.

السابع: موضعُ الاسم الجليل فيه موضعُ الضمير، لإشعارِه بأن المغفرة من مقتضياتِ ذاته -لا لشيءٍ آخر من توبةٍ أو غيرها-.

الثامن: تعريفُ «الذنوب»، فإنه في مقام التمدح ظاهرٌ في الاستغراق، فتشملُ الذنب الذي تعقبُه التوبة والذي لا تعقبُه.

التاسع: التأكيد بالجميع.

العاشر: التعليل.

الحادي عشر: التعبير بـ «الغفور»؛ فإنه صيغةُ مبالغة، وهي إن كانت باعتبار «الكمِّ» شملت المغفرةُ جميع الذنوب، أو باعتبار الكيف شملت الكبائر بدون توبةٍ.

الثاني عشر: حذف معمول «الغفور» فإن حذف المعمولِ يُفيد العموم.

الثالث عشر: إفادةُ الجملةِ الحصر، فإن من المعلوم أن الغفران قد يوصَف به غيرُه تعالى، فالمحصورُ فيه سبحانه، إنما هو الكامل العظيم، وهو ما يكون بلا توبة.

الرابع عشر: المبالغة في ذلك الحصر.

الخامس عشر: الوعدُ بالرحمة بعد المغفرة، فإنه مشعرٌ بأن العبدَ غيرُ



مستحقٌّ للمغفرة لولا رحمته، وهو ظاهرٌ فيما إذا لم يتُب.

السادس عشر: التعبير بصيغة المبالغة فيها.

السابع عشر: إطلاقها، ومَنَعَ المعتزلة مغفرة الكبائر والعفو عنها من غير توبة.

□ وقال بعض أجلَّة المُدقِّقين: إن قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ ﴾ ، خطاب للكافرين والعاصين، وإن كان المقصود الأوْلى الكفار، لمكان القُرب وسبب النزول، فقد أخرج ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قال: إن أهل مكة قالوا: يزعم محمدٌ ﷺ أنه من عَبَد الأوثان ودعا مع الله إلهًا آخر، وقتل النفس التي حرَّم الله، لم يُغفر له، فكيف نهاجر ونسلم وقد عبدنا الآلهة وقتلنا النفس، ونحن أهل شرك؟ فأنزل الله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ .

□ وأخرج ابن جرير، عن ابن عمر رضي الله عنهما، قال: «نزلت هذه الآيات في عياش بن أبي ربيعةَ والوليدِ بن الوليد، ونفرٍ من المسلمين كانوا أسلموا ثم تركوا دينهم بعذابٍ عُذِّبوه، فنزلت هؤلاء الآيات، وكان عمر رضي الله عنه كتابًا، فكتبها بيده، ثم كتب بها إلى عياش وإلى الوليد وإلى أولئك النفر، فأسلموا وهاجروا.

□ وأخرج ابن جرير عن عطاءِ بن يسار، قال: «نزلت هذه الآيات الثلاث: ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِىَ ﴾ إلى: ﴿ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ بالمدينة في وحشي وأصحابه.

□ انظر إلى سعة المغفرة «يقتلون أولياءَه ثم يأمرهم بالتوبة.. انظر إلى كرم الله..» هذا شأنه فيمن يقتل أولياءه ويتوب، فكيف شأنُه فيمن يُقتل فيه.

□ فتح اللهُ بابَ المغفرة بالإسلام أمامَ اليهود الذين قالوا: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغْلُولَةٌۚ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ [المائدة: ٦٤]، والذين قَتلوا أنبياءه، وأمامَ النصارى الذين قالوا: إن الله ثالثُ ثلاثة، فقال: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٧٤﴾ [المائدة]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ۝١٠﴾ [البروج].

فيا من أبعدتم نفوسَكم عن الحضرات الربانية، وأركستموها في الدنايا الشيطانية.. انتعِشوا بفتح باب الأمل بهذه الآية بغفران الذنوب، فرب معصية أورثت صاحبها عزًّا طويلًا.. إذا ذَلَّ وعرف بابَ مولاه «وأنينُ المذنبين أحبُّ إلى الله من زجل المسبحين».

أخي أين مغفرة من مغفرة!!.

* لو أراد ملِكٌ من ملوك الدنيا العفوَ عن أهل الجرائم، قام عليه جنده، فانحلَّ عقده، وانثلم حدّه، فعلَّل هذه العلَّة بما يخصه فقال مؤكدًا لاستبعاد ذلك بالقياس على ما يعهدون: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ يمحو الذنوب عينًا وأثرًا، فلا يعاقب ولا يعاتِب.

* هو «قابل التوب» أتى بالمصدر ليُفهِمَ أن أدنى ما يُطلق عليه الاسم كافٍ.. فما بالُك بالتوبة النصوح.

* فيا أربابَ الدنس، ويا أوساخَ الذنوب ﴿هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ۝٤٢﴾ [ص]. لا تقنعوا بصبِّ ماء التوبة على الظاهر، بُلُّوا الشعر، وأنقُوا البشرة، ما لم تسبَحْ بدمع عينيك، لم تأت بسُنة الغسل.

فلـــو داواك كـــلُّ طبيـــب داءً ... بغـــير كـــلام ربِّي مـــا شـــفاكا

* وكلامُ الملوك ملوك الكلام. قال تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ظَٰهِرَ ٱلْإِثْمِ



وَبَاطِنَهُۥٓ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡسِبُونَ ٱلۡإِثۡمَ سَيُجۡزَوۡنَ بِمَا كَانُواْ يَقۡتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [الأنعام].

فَكِّرْ في الذنبِ وما احتَقَبَتْ ... كَفَّاكَ عليكَ وما اكْتَسَبَا

كم بِتَّ على ذنبٍ فرحًا ... وغدوتَ على ذنبٍ طَرَبا

وعَلِمتَ بأنَّ الله يَرى ... فأَسَأْتَ ولمْ تُحْسِنْ أدبَا

فَأَعِدَّ الزَّاد فما سفرٌ ... كالموتِ تَرى فيه النَّصَبَا

وأَفِقْ فالعُمْرُ به رَمَقٌ ... فَكَأَنْ قد فاتَ وقَدْ ذَهَبا

يا كثير الدرَن والدنس، يا من كلما قيل: «أقبِل» انتكسْ، يا من أُمر بترك ما يفنى لما يبقى، فعَكَس، جاء الأجل، وحديث الأمل هَوَس.

يا أهل الذنوب والخطايا، ألكم صبرٌ على العقوبة؟ ﴿كَلَّآ إِنَّهَا لَظَىٰ ﴿١٥﴾﴾ [المعارج]، إذا شاهَدت من اشترى لذة ساعةٍ بعذاب سنين ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾ [الملك: ٨]، فكيف أمن العُصاة؟ ﴿وَإِن مِّنكُمۡ إِلَّا وَارِدُهَاۚ﴾ [مريم: ٧١].

✍ **أخي:** «لا يجعل الله عبدًا أسرع إليه كعبدٍ أبطأ عنه». أما يكفيك هذا لقول من طبيب القلوب «الحسن البصري».

□ قال شُميط بن عَجْلان: «الناس ثلاثةٌ: فرجلٌ ابتكر الخير في حداثةِ سِنِّة، ثم داوَم عليه حتى خرج من الدنيا فهذا المقرَّب، ورجلٌ ابتكر عمره بالذنوب وطول الغفلة، ثم راجع بتوبةٍ، فهذا صاحب يمين. ورجلٌ ابتكر الشر في حداثة سنة ثم لم يزل فيه حتى خرج من الدنيا، فهذا صاحب شمال»(١).

---

(١) «روح المعاني» للألوسي (٢٤/ ١٤- ١٥).

✍ **أخواني:** المعاصي تنكّس الرأس، وما مخلّط كمنْ كاس [١]، ولا بانٍ على رمْلٍ كمحكم الأساس، إن بينهما كما بين الطهارة والأنجاس، وعلى وجه الطائع نور طاعته، وعلى وجهِ العاصي ظلامُ مخالفته، وعند الموت يُتَلَقَّى هذا بالبشارة، ويقع هذا في الخسارة، وفي القبر يَفترِشُ هذا مهاد الفلاح، ويُلقى ذاك على حَسَك [٢] القِباح، وعند الحشر هذا يَرْكب وذاك يُسحَب، ثم يقال للعصاة: هَلَّا ذكَرْتُمْ، وللطائعين: سلام عليكم بما صبرتم.

كمْ بين خَجِلٍ يَذِل، وبين طائعٍ يُدِلُّ

إياكم إياكم والذنوب، احذروا عواقب العيوب.

✍ **أخي:** هذا أشرف حديث لأهل الشام -كما قال الإمام أحمد بن حنبل- وكان أبو إدريس الخولاني إذا حدث به جثا على ركبتيه:

• عن أبي ذر رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: يا عبادي، إني حرَّمتُ الظلم على نفسي وجعلته محرمًا بينكم، فلا تظالموا. يا عيادي، كلُّكم ضالٌّ إلَّا منْ هديته، فاستهدوني أهدِكم. يا عبادي كلكم جائعٌ إلَّا من أطعمتُه، فاستطعِموني أُطعِمْكم. يا عبادي، كلكم عارٍ إلَّا من كسوتُه، فاستكسوني أَكْسُكم. يا عبادي، إنكم تخطِئون بالليل والنهار، وأنا أغفرُ الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفرْ لكم. يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضرِّي فتضرُّوني، ولن تبلغوا نفعي فتنفعوني. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسَكم وجنَّكم، كانوا على أتقى قلب رجلٍ واحدٍ**

(١) كاس: عقل.

(٢) الحسك: الشوك.

منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئًا. يا عبادي، لو أنَّ أولكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحد منكم، ما نقص ذلك من مُلكي شيئًا. يا عبادي لو أنَّ أوَّلكم وآخركم، وإنسكم وجنَّكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيتُ كل إنسانٍ مسألته، ما نقص ذلك مما عندي، إلَّا كما يَنقصُ المِخيطُ إذا أُدخل البحر. يا عبادي، إنما هي أعمالكم أُحصيها لكم؛ ثمَّ أوفيكم إيَّاها، فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومَنْ وجد غير ذلك فلا يلومن إلَّا نفسه»(١).

* ومن حثِّ الله تبارك وتعالى المؤمنين على التوبة قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

* وقوله سبحانه: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت: ٦].

* وقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾ [البقرة].

* وأمر تبارك وتعالى المؤمنين بالتوبة النصوح فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

والله يريد التوبة على عباده:

* فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾﴾ [النساء].

* وقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾﴾ [التوبة].

---

(١) رواه أحمد (٥/ ١٦٠)، ومسلم (٢٥٧٧).

* وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُوا۟ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الشورى: ٢٥].

* قال تعالى: ﴿أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ [إبراهيم: ١٠].

والله تعالى ينزل إلى السماء الدنيا إلى مضى شطر الليل وينادي عباده ويدعوهم إلى التوبة.

• عن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا مضى شطرُ الليل، -أو ثُلثاه- يَنزلُ الله إلى السماء الدنيا فيقول: هل من سائلٍ فيُعطى؟ هل من داعٍ فيُستجابَ له؟ هل من مستغفر فيُغفرَ له؟ حتى ينفجر الصبح**»[(١)].

• وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: «**ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له**»[(٢)].

• وقال رسول الله ﷺ: «**يتنزَّلُ ربُّنا تبارك وتعالى كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: مَن يدعوني فأستجيب له؟ من يسألني فأعطيه؟ من يستغفرني فأغفر له؟**»[(٣)].

واللهُ تعالى يأمرُ عبادة بالتوبة، ويَعِدُ بالقبول لها، ويفتحُ باب الرجاء.

---

(١) رواه أحمد (٣/ ٣٤) ومسلم (٧٥٨).

(٢) رواه أحمد (٢/ ٢٦٤) والبخاري (٤٩٨) ومسلم (٧٥٨) وأبو داود (١٣١٥) والترمذي (٣٤٩٨) وابن ماجه (١٣٦٧).

(٣) أخرجه البخاري (٥٩٦٢)، ومسلم (٧٥٨) عن أبي هريرة.

(٥) محبته للتائبين:

شأن عظيم أن تُحِبُّ مولاك وأعظم منهُ أن يُحبَّكَ الله، «ليس الشأنُ أن تُحِب، إنها الشأن أن تُحَبَّ»، وقد أخبر الله عن محبته للتائبين، فيا لها من نعمة سابغة أنعم الله بها على خواص عباده التائبين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة].

(٦) فَرح الله العظيم بتوبة عبده:

• قال رسول الله ﷺ: **«للهُ أَشَدُّ فَرَحًا بتوبةِ عبدِه حين يتُوبَ إليهِ من أَحَدِكُم كان على راحلَتِه بأرض فَلاة، فانْفَلَتَتْ منه وعليها طعامه وشرابه، فأَيَس منها، فأتى شجرة فاضطَّجَعَ في ظلها قد أَيِس من رَاحلته، فبينا هو كذلك إذا هُوَ بها قائمةً عنده، فأخذ بخُطامِها، ثم قال من شدة الفَرَح: اللَّهم أنت عبدي وأنا ربُّكَ، أخطأَ مِن شِدة ه الفرح»**[١].

• وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«للهُ أشدُّ فَرَحًا بتوبةِ عبده المؤمن من رَجُلٍ في أرضٍ دَوِّيَّة مُهْلِكة، معه راحلته عليها طعامه وشرابه، فنام فاستيقظ وقد ذَهَبَتْ فطلبَها حتى أدركَهُ العَطَش، ثم قال: أرجعُ إلى مكاني الذي كنتُ فيه، فأنامُ حتى أموتَ، فوضع رأسه على ساعِدِه ليموتَ، فاستيقظَ وعندَه راحلتُهُ وعليها زادُهُ وطعامُه وشرابُهُ، فاللهُ أشدُّ فرحًا بتوبة العبد المؤمنِ من هذا براحلته وزاده»**[٢].

• وعن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا: **«للهُ أشدُّ فرحًا بتوبة أحدكم مِنْ**

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

(٢) أخرجه مسلم (٢٧٤٤)، وانظر البخاري (٦٣٠٨).

أحدِكُمْ بضالَّتِه إذا وجدها»[١].

• وفي «الصحيحين» من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«اللهُ أفرحُ بتوبة عبده مِن أحَدِكم سَقَط على بعيره وقد أضَلَّه في أرض فلاة»**[٢].

وهذا الفرح العظيم هو «السِّرُّ الأعظم الذي لا تقتحمه العبارة، ولا تجسر عليه الإشارة، ولا يُنادى عليه منادي الإيمان على رؤوس الأشهاد، بل شهدته قلوب خواص العباد، فازدادت به معرفةً لربها ومحبة له، وطمأنينةً به وشوقًا إليه ولهَجًا بذكره، وشهودًا لبرِّه، ولُطْفه وكرمه وإحسانه، ومطالعة لسرِّ العبودية، وإشراقًا على حقيقة الألوهيَّة»[٣].

إن هذا الفرحَ له شأنٌ لا ينبغي للعبد إهمالُه والإعراض عنه، ولا يطلَّع عليه إلَّا من له معرفةٌ خاصةٌ بالله وأسمائه وصفاته، وما يليق بعزِّ جلاله.

وهذا الفرح الإلهي متعلِّق بإحسان الله وجوده وبِّره.

□ وأما إنْ لاحظتَ تعلُّقَه بإلهيته وكونه معبودًا فذاك مشهدٌ أجلُّ من هذا وأعظم منه، وإنما يشهده خواص المحبين.

فإن الله سبحانه إنما خَلق الخلْق لعبادته، الجامعة لمحبَّته والخضوع له وطاعته، وهذا هو الحق الذي خُلِقت به السموات والأرض، وهو غاية الخلق والأمر. فإذا خرج العبد عمَّا خُلِق له من الطاعة والعبودية، فقد

---

(١) أخرجه مسلم (٢١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري (حديث ٦٣٠٩)، ومسلم (ص٢١٠٥).

(٣) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٩).

خرج عن أحب الأشياء إليه، وعن الغاية التي لأجلها خُلِقت الخليقة، وصار كأنَّه خُلِق عبثًا لغير شيء، إذْ لم تُخرج أرضه البذر الذي وُضِع فيها، بل قَلَبَتْهُ شوكًا ودَغَلًا. فإذا راجع ما خُلِق له وأُوجِد لأجله فقد رجع إلى الغاية التي هي أحبُّ الأشياء إلى خالقه وفاطره، ورجع إلى مقتضى الحكمة التي خُلِق لأجلها، وخرج عن معنى العبث والسُّدَى والباطل، فاشتدت محبةُ الرب له، فإن الله يحب التوابين ويحبُّ المتطهرين. فأوجبت هذه المحبة فرحًا كأعظم ما يُقدَّر من الفرح. ولو كان في الفرح المشهود في هذا العالم نوعٌ أعظم من هذا الذي ذكره النبي ﷺ لذكره، ولكن لا فرحة أعظم من فرحة هذا الواجد الفاقدِ لمادة حياته وبلاغِه في سفره، بعد إياسه من أسباب الحياة بفقده.

وهذا كشدةِ محبته لتوبة التائب المحبِّ إذا اشتدت محبتُه للشيء وغاب عنه، ثم وجده وصار طَوعَ يده، فلا فرحةَ أعظم من فرحته به.

فما الظن بمحبوب لك تحبُّه حُبًّا شديدًا، أَسَره عدوك، وحال بينك وبينه، وأنت تعلم أن هذا العدو سيسومه سوء العذاب، ويُعَرِّضه لأنواع الهلاك وأنت أولى به منه، وهو غَرْسُك وتربيتك، ثم إنه انفلت من عدوه، ووافاك على غير ميعاد، فلم يَفْجَأْكَ إلَّا وهو على بابك، يتملَّقُك ويترضاك ويستعينُك، ويُمرِّغُ خَدَّيْه على تراب أعتابك. فكيف يكون فرحك به، وقد اختصصته لنفسك، ورضيتَه لقُربك، وآثرتَه على سواه؟

هذا، ولستَ الذي أوجدتَه وخلقتَه، وأسبغت عليه نعمك، والله عَزَّوَجَلَّ هو الذي أوجد عبده وخلقه وكوَّنه، وأسبغ عليه نعمه، وهو يحب أنْ يتمَّها عليه، فيصير مظهرًا لنعمه، قابلًا لها، شاكرًا لها، مُحِبًّا لِوَلِيِّها، مطيعًا له عابدًا له معاديًا لعدوّه، مبغضًا له عاصيًا له. والله تعالى يحب من عبده

معاداة عدوه، ومعصيته ومخالفته، كما يجب أن يواليَ اللهَ مولاه سبحانه ويطيعه ويعبده، فتنضاف محبته لعبادته وطاعته والإنابة إليه، إلى محبته لعداوة عدوه، ومعصيته ومخالفته، فتشتد المحبة منه سبحانه مع حصول محبوبه. وهذا هو حقيقة الفرح.

• وفي صفة النبي ﷺ في بعض الكتب المتقدِّمة «**عبدي الذي سُرَّت به نفسي**»، وهذا لكمال محبته له، جعله مما تُسَرُّ نفسه به سبحانه. ومن هذا «ضحكه» سبحانه من عبده، حين يأتي من عبوديته بأعظم ما يحبه. وليس في أثبات هذه الصفات محذورٌ ألبتة، فإنه تبارك وتعالى «فرح» ليس كمثله شيءٍ، و«ضحك» ليس كمثله شيء، وحكمه كحكم رضاه ومحبته، وإرادته وسائر صفاته، فالباب واحد، لا تمثيل ولا تعطيل»[1].

(٧) استغفار حملة العرش للمؤمنين دالٌّ على عُظْم المغفرة:

يا جوهرةً لا تعرف قدرها، حملةُ العرش يستغفرون لك.. فمن تكون حتى يستغفروا لك!.

* قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ۝٧﴾ [غافر].

«يقدِّمون بين يدي الدعاء بأنهم في طلب الرحمة للناس: إنما يستمِدُّون من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويحيلون إلى علم الله الذي وَسِع كلَّ شيء، وأنهم لا يُقدِّمون بين يدي الله بشيء، إنما هي رحمتُه وعلمه؛ منهما يستمدُّون، وإليهما يلجئون.

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (١/ ٢١٠- ٢١٧).

﴿فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ﴾ تلتقي هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة وبصفة الله هناك.. غافر الذنب وقابل التوب.. ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ⑨﴾ [غافر] هذه الدعوة – بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن- لفتة إلى الركيزة الأولى في الموقف العصيب، فالسيئات هي التي توبق أصحابها في الآخرة، وتوردهم مورد التهلكة، فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها، وقاهم نتائجها وعواقبها، وكانت هذه هي الرحمةَ في ذلك الموقف، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة، وذلك هو الفوزُ العظيم.. فمجردُ الوقاية من السيئات هو أمر عظيم»(١).

(٨) امتنان الله على نبيه ﷺ بالمغفرة التَّامَّة:

* قال تعالى ممتنًّا على نبيه ﷺ: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ① لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ②﴾ [الفتح].

هذا الفض الإلهيُّ على رسوله ﷺ فتحٌ مبين ومغفرةٌ شاملة، ونعمةٌ تامة وهدايةٌ ثابتة ونصرٌ عزيز، إنها جزاء الطمأنينة التامةِ لإلهام الله وتوجيهه والاستسلام الراضي له.

لقد فرح رسول الله ﷺ بهذه الصورة.. فرح قلبه الكبير بهذا الفيض الرباني عليه وعلى المؤمنين به.. فرح بالفتح المبين وفرح بالمغفرة الشاملة وفرح بالنعمة التامة..

• قال رسول الله ﷺ: «**نزل عليَّ البارحة سورة هي أحبُّ إليَّ من الدنيا**

---

(١) «الظلال» (٥/ ٣٠٧١).

وما فيها».

• وفي رواية: «**لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة هي أحبّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس**: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾»[1]. وفاضت نفسه الطيبة بالشكر لربه على ما أولاه من نعمته، فاضت بالشكر في صورة صلاة طويلة مديدة، تقول عنها عائشة رضي الله عنها: كان رسول الله ﷺ إذا صلى قام حتى تنفر رجلاه، فقالت له عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله، أتصنعُ هذا وقد غَفر اللهُ لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال ﷺ: «**يا عائشة، أفلا أكون عبدًا شكورًا**»[2].

(٩) الشفاعة وسؤال المغفرة للأُمَّة مقام نبيِّنا المحمود ﷺ:

* قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾ [الإسراء].

يأمر الله نبيه ﷺ بقيام الليل عساه يبلغُ هذا المقام، قيام الليل ليبلغ الكمالَ اللائق به.. وهو الشفاعة وسؤالُ المغفرة.

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ في قوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ۝٧٩﴾، وسُئل عنها فقال: «**هي الشفاعة**»[3].

• وعن سلمان الفارسي رضي الله عنه قال: «يأتون النبي ﷺ فيقولون: يا نبي الله، أنت الذي فتح الله بك وختم، وغَفر الله لك ما تقدَّم من ذنبك وما

---

(١) رواه مسلم، وقد تقدم في «علو الهمة في الصلاة».

(٢) المصدر السابق.

(٣) حسن: رواه الترمذي (٣١٣٧) وحسنه، مقبل بن هادي الوادعي في كتاب «الشفاعة» (ص٣١)، وصححه الشيخ الألباني.

تأخر، فاشفعْ لنا إلى ربك فيقول: «نعم. أنا صاحبُكم، فيخرج يحوشُ النار، حتى ينتهي إلى باب الجنة، فيأخذ بحلقة في الباب من ذهب فيقرع الباب، فيقال: من هذا؟ فيقال: محمد. قال: فيُفتح له، قال: فيجيء حتى يقوم بين يدي الله، فيستأذن في السجود، فيُؤذن له، قال: فيفتحُ الله له من الثناء والتحميد والتمجيد ما لم يفتح لأحدٍ من الخلائق، فيُنادى: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تُعط، وادْعُ تُجب. قال: فيرفع رأسه فيقول: رب أمتي أمتي، ثم يستأذن في السجود، فيؤذن له، فيفتح له من الثناء والتحميد والتمجيد ما لم يُفتح لأحد من الخلائق، فيُنادى: يا محمد، ارفع رأسك، سل تعط، واشفع تشفع، وادع تجب». -قال: يفعل ذلك مرتين أو ثلاثًا-، فيشفع لمن كان في قلبه حبَّةٌ من حِنطة، أو مثقال شعيرة، أو مثقال حبة من خردل من إيمان».

قال سلمان رضي الله عنه: فذلك المقام المحمود [(١)].

(١٠) سؤال المغفرة هي الدعوة التي خبَّأها النبي ﷺ لأمته:

المغفرةُ عظيمةُ القدر.. وقد كان سؤالُ المغفرة هي دعوة نبينا ﷺ.. وهي التي اختارها ورآها أولى من دخول نصف أمته الجنة.. فهل بعد ذلك فضل.

• قال ﷺ: **«لكل نبيٍّ دعوةٌ مستجابة يدعو بها وإني اختبأتُ دعوتي»**.

وفي رواية: **«وأريد أن أختبئَ دعوتي شفاعة لأمتي في الآخرة»**.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن أبي شيبة، ورواه الطبراني بإسناد صحيح، وقال الحافظ في «المطالب العالية»: صحيح موقوف، وقال الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب»: إسناده صحيح.

وفي رواية: «فتعجَّل كل نبي دعوته».

وزاد في رواية: «فهي نائلة من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»(١).

• وقال ﷺ: «خُيِّرت بين الشفاعة وبين أن يَدخلَ شطرُ أمتي الجنة، فاخترت الشفاعة»(٢).

• وقال ﷺ: «أتاني آتٍ من عند ربي، خيّرني بين أن يُدخل نِصفَ أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترتُ الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئًا»(٣).

فأيُّ قدر للمغفرة أعظمُ من هذا.. المغفرةُ أثمنُ عند نبينا ﷺ من دخول نصف أمته الجنة، وهي من خصائص نبينا ﷺ.

(١١) سؤال المغفرة هو الدعاء المأثور في أغلى ليالي العمر؛ ليلة القدر:

• عن عائشة ﵂، قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيتَ إن علمتُ أي ليلةٍ ليلة القدر، ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللَّهم إنك عَفُوٌّ تُحبُّ العفو، فاعف عني»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٥٩٤٥) ومسلم (١٩٩) من وجوه (مع الزيادة)، وأبو عوانة (بالزيادة وبدونها)، والترمذي (٣٦٠٢) (بالزيادة) وابن ماجه (٤٣٠٧) (بالزيادة) ومالك (٤٩٤) والدارمي (٢٥٦٧) وابن خزيمة وأحمد (٥/ ١٤٧) (بالزيادة).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٧٥) عن ابن عمر وابن ماجه (٤٣١١) عن أبي موسىٰ، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٣٣٣٥).

(٣) صحيح: رواه أحمد عن أبي موسىٰ (٤/ ٤٠٤)، والترمذي (٢٤٤١) وابن حبان (٧٢٠٧) عن عوف بن مالك الأشجعي، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٥٦)، وكذا الشيخ شعيب الأرنؤوط في «المسند».

(٤) إسناده صحيح: رواه أحمد (٦/ ١٧١) والترمذي (٣٥١٣) وابن ماجه =

(١٢) دعوة الأنبياء دعوة للمغفرة:

يكفي المغفرة شرفًا أنها هي دعوة الأنبياء ودعوة التوحيد:

فعن نبي الله نوح عليه السلام ودعوته:

* قال تعالى: ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ﴾ [نوح].

* وقال تعالى: ﴿ ۞ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِى ٱللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ قَالُوٓا۟ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ ﴾ [إبراهيم].

وعن نبي الله هود عليه السلام:

* قال تعالى: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾ [هود].

وعن شعيب عليه السلام:

* قال تعالى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود].

وعن نبي الله صالح عليه السلام ودعوته:

* قال تعالى: ﴿ ۞ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم

(٣٨٥٠)، وصححه الترمذي. وقال الألباني: إسناده صحيح. في «تخريج مشكاة المصابيح» (رقم ٢٠٩١)، وصححه كذلك الشيخ شعيب الأرنؤوط.

مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ ﴾ [النمل].

* وقال تعالى عن نبينا ﷺ: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴿٦﴾ ﴾ [فصلت].

وعن لسان رسولنا ﷺ:

* قال تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾ [هود].

(١٣) حرمان الشيطان من المغفرة، والإنعام بها على بني آدم، تشريفًا من الله لهم:

• قال رسول الله ﷺ: «**إن الشيطانَ قال: وعزَّتك يا ربِّ، لَا أَبرحُ أُغوي عبادَكَ ما دامت أرواحُهم في أجسادهم، فقال الربُّ: وعزتي وجلالي، لا أزال أَغفرُ لهم ما استغفروني**»[1].

---

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ٢٩) وأبو يعلىٰ (٢/ ٤٥٨) والحاكم (٤/ ٢٩٠) وأبو نعيم في «الحلية» (٨/ ٣٣٢) عن أبي سعيد، وصححه الحاكم، وأقرَّه الذهبي، وقال الهيثمي في أحد إسنادي أحمد: «رجاله رجال الصحيح، وكذا أحد إسنادي أبي يعلىٰ». وصححه السيوطي، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ١٦٥٠)، وحسنه الشيخ شعيب الأرنؤوط في تحقيق «المسند»، والشيخ حسين الداراني محقق «مسند أبي يعلىٰ».

□ قال المُناوي في «فيض القدير» (٢/ ٣٥١): «في إشعار الخبر توهينٌ لكيد الشيطان، ووعد كريم من الرحمن بالغفران».

(١٤) تسهيل الله التوبة لأُمَّة رسوله ﷺ:

إن من رحمة الله بهذه الأمة المحمدية تيسير التوبة لها وتسهيلها عليهم، مقارنة ببني إسرائيل.

* قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾ ﴾ [البقرة].

□ قال ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٣٠-١٣١): «هذه صفةُ توبته تعالى على بني إسرائيل من عبادةِ العجل: عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: «قال الله تعالى: إن توبتهم أن يقتلَ كلُّ رجلٍ منهم كلَّ مَن لَقِيَ -من ولد ووالد-، فيقتلُه بالسيف، ولا يُبالي مَن قتل في ذلك الموطن».

□ وعن ابن عباس رضي الله عنهما أيضًا قال: «أمر موسى قومه -مِن أمْرِ ربِّه عز وجل- أن يقتلوا أنفسهم، واحتبى الذين عبدوا العجل فجلسوا، وقام الذين لم يعكفوا على العجل، فأخذوا الخناجرَ من أيديهم، وأصابتهم ظُلَّةٌ شديدة، فجعل يقتل بعضهم بعضًا، فانجلت الظلَّة عنهم، وقد أجلوا عن سبعين ألف قتيل، كل من قُتل منهم كانت له توبة، وكل من بقي كانت له توبة».

□ وقال الزهري: «لما أُمِرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها، برزوا ومعهم موسى، فاضطربوا بالسيوف، وتطاعنوا بالخناجر، وموسى رافع يديه، حتى إذا أفنوا بعضهم، قالوا: يا نبي الله، ادع الله لنا، وأخذوا بعضديه يسندون يديه، فلم يزل أمرهم على ذلك، حتى إذا قَبِل الله توبتهم قبض

أيديهم بعضهم عن بعض، فألقوا السلاح، وحزن موسى وبنو إسرائيل للذي كان من القتل فيهم، فأوحى الله جل ثناؤه إلى موسى: ما يحزنك؟ أما من قُتِل منكم فحيٌّ عندي يرزقون، وأما من بقي فقد قبلت توبته. فسرّ بذلك موسى، وبنو إسرائيل» اهـ [(١)].

قد كان هذا تطهيرًا وتكليفًا مرهقًا لهم شاقًّا عليهم، أن يقتل الأخ أخاه، فكأنما يقتل نفسه برضاه، ولكنه كذلك كان تربية لتلك الطبيعة المنهارة الخوّارة، التي لا تتماسك عن شر، ولا تتناهى عن نكر، ولو تناهوا عن المنكر في غيبة نبيهم ما عبدوا العجل. وإذ لم يتناهوا بالكلام فليتناهوا بالحسام؛ وليؤدوا الضريبة الفادحة الثقيلة التي تنفعهم وتُربِّيهم.

• فما أعظم رحمة الله بأمة نبيه ﷺ حين يسرَّ لهم التوبة فقال ﷺ: «**الندم توبة**».

(١٥) حَجْبها عن المنافقين والكافرين:

من كرامة المغفرة على الله ﷻ، وأنها من الله بمكان، أن حجبها عن المنافقين والكافرين.

* قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ۝٦﴾ [المنافقون].

* وقال تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

---

(١) رواه ابن جرير بإسناد جيد عنه.

ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾ [التوبة].

* وقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَظَلَمُوا۟ لَمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ﴿١٦٨﴾ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٦٩﴾ ﴾ [النساء].

(١٦) سؤال الأنبياء المغفرة لعظمها:

وسؤالُ الأنبياء المغفرة يدلُّ على عِظَم شأنها عندهم، حتى إن الأنبياء في عرصات القيامة يقولون: «**اذهبوا إلى محمدٍ، عَبْد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر**»(١).

أ- آدم عليه السلام:

* قال تعالى عن معصية صَفِيِّه آدم: ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [طه].

* وعن سؤال آدم للمغفرة قال تعالى: ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى: ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [البقرة].

□ قال ابن القيم في «الفوائد» (٥١، ٥٢): «إيَّاك والمعاصي؛ فإنها أذلَّت عِزَّ ، ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ وأخرجتْ إقطاعَ ﴿ٱسْكُنْ﴾.

يا لها لحظةً أثمرتْ حرارة القلق ألف سنة، ما زال يكتب بدم الندم سطور الحزن في القصص، ويُرسلها مع أنفاس الأسف، حتى جاءه توقيع

(١) صحيح: وهو جزء من حديث الشفاعة، وهو في المسند والصحيحين وغيرها.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ .

فرح إبليسُ بنزول آدم من الجنَّة، وما عَلِم أن هبوطَ الغائص في اللُّجَّة خلف الدُّرِّ صعودٌ.

كم بين قوله لآدم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ، وقوله لك: ﴿اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ﴾ ، ما جرى على آدم هو المراد من وجوده «لوْ لمْ تُذنبوا».

يا آدم، لا تجزع من قولي لك: ، ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ فلك ولصالح ذُرِّيَّتك خلقْتُها.

يا آدم، كنت تدخل عليَّ دخول الملوك على الملوك، واليوم تدخل عليَّ دخول العبيد على الملوك.

يا آدم، لا تجزع من كأس زَلَل كانت سببَ كيسك، فقد استخرج منك داءَ العُجْب، وأُلْبست خِلْعة العبودية ﴿وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا﴾.

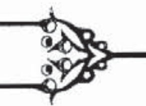
لعلَّ عَتْبَك محمودٌ عواقبُه ... ورُبَّما صحَّتِ الأجسامُ بالعِلَلِ

يا آدم، لم أُخرِجْ إقطاعك إلى غيرك، إنَّما نحَّيْتُك عنه لأُكمل عمارتَهُ لك، وليُبعث إلى العُمَّال نَفَقَة ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ﴾ .

يا آدم، إنَّما ابتليتك بالذنب؛ لأني أُحبُّ أن أَظهر فضلي، وجودي وكرمي، على مَنْ عصاني، **«لو لم تُذنبوا لذهبَ الله بكم، ولجاء بقومٍ يُذنبون فيستغفرون فيغفر لهم»**.

يا آدم، إذا عصمتُك وعصمت بنيك من الذنوب، فعلى مَنْ أجود بحلمي، وعلى مَنْ أجودَ بعفوي ومغفرتي وتوبتي، وأنا التواب الرحيم.

يا آدم، لا تجزع من قولي لك: ﴿اخْرُجْ مِنْهَا﴾ ، فلك خلقْتُها، ولكن



اهبط إلى دار المجاهدة، وابذر بذر التقوى، وأمطرْ عليه سحائب الجفون، فإذا اشتد الحَبُّ واستغلظ، واستوى على سُوقه، فتعالَ فاحصده.

يا آدم، ما أهبطتُك من الجنة إلَّا لتتوسَّل إليَّ في الصعود، وما أخرجتُك منها نَفْيًا لك عنها، ما أخرجتك منها إلَّا لتعود..

إن جـرى بيننـا وبينـك عَتْـبٌ وتنـاءت منَّـا ومنـك الـدِّيارُ
فـالودادُ الـذي عهـدتَ قـديمٌ والعثـار الـذي أصـبت جُبَـارُ

يا آدم، ذنب تذلُّ به لدينا، أحبُّ إلينا من طاعةٍ تُدلُّ بها علينا.

يا آدم، أنينُ المُذنبين، أحبُّ إلينا من تسبيح المُدِلِّين.

تالله ما نفعه عند معصيته عزُّ ، ﴿ ٱسْجُدُوا ﴾ ولا شرفُ ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ﴾ ، ولا خصيصةُ ﴿لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ ﴾ ، ولا فخرُ ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي ﴾ ، وإنما انتفع بِذُلِّ ﴿ رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا ﴾ ، لَمَّا لبس درع التوحيد على بدن الشكر، وَقَع سهم العدو منه في غير مقتلٍ، فجرحَهُ، فوضع عليه جُبار الانكسار، فعاد كما كان، فقام الجريح كأنْ لم يكن به قَلَبَة»(١).

ب- نوح عليه السلام :

* عصى نوحُ ربَّه، لَمَّا دعا ربه في ابنه الكافر ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود]، فلامَهُ ربُّه على مقالته هذه، وأعْلَمَه أنه ليس من أهله، وأنَّ هذا منه عملُ غير صالـح ﴿قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ صالح [هود]، فسأل ربَّه

---

(١) القَلَبَة: هو الداء الذي يتقلَّب منه صاحبه على فراشه.

المغفرة وتاب، قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [هود].

* وقال تعالى: ﴿رَّبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَلَا تَزِدِ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢٨﴾﴾ [نوح].

جـ- إبراهيم عليه السلام:

* قال تعالى عن خليله إبراهيم صلى الله عليه وسلم: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء].

* وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ﴿٤١﴾﴾. [إبراهيم].

* وقال تعالى على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ [البقرة].

د، هـ: كليم الرحمن موسى، وهارون عليهما السلام:

* أراد عليه السلام نُصرة الذي من شيعته، فوكز خصمَهُ القبطيّ فقضى عليه: ﴿قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِۖ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [القصص]. واستغفر موسى لذنبه: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُۥٓۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص].

* وقال تعالى: ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَاۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ ﴿١٥٥﴾﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى عن لسانه: ﴿فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الأعراف].

* وعن موسى وهارون عليهما السلام قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾ [الأعراف].

و- أبناء يعقوب عليه السلام :

* وعن أبناء يعقوب عليه السلام قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ [يوسف].

ز- داود عليه السلام :

* وقال تعالى عن نبيه داود عليه السلام: ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ ۗ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ۩ ﴿٢٤﴾﴾ [ص].

ح- سليمان عليه السلام :

* وقال تعالى عن نبيه سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٣٥﴾﴾ [ص].

ط- ذو النون عليه السلام :

* وقال تعالى عن ذي النون عليه السلام: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء].

ي- سيِّد الخلق محمد ﷺ:

* عاتبه ربه في أمور: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١ ﴾ [التحريم]. نزلتْ بسبب تحريم الرسول ﷺ العسل على نفسه، أو تحريم مارية القبطية.

* وعاتبه ربه بسبب عُبُوسه في وجه الأعمى ابن أُم مكتوم، وانشغاله عنه بطواغيت الكفر يدعوهم إلى الله. والإقبال على الأعمى، الرَّاغِب فيما عند الله، هو الذي كان ينبغي أن يكون من الرسول ﷺ: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ١ أَن جَآءَهُ ٱلۡأَعۡمَىٰ ٢ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ٣ أَوۡ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكۡرَىٰٓ ٤ ﴾ [عبس].

* وقبل الرسول ﷺ من أسرى بدر الفديةَ، فأنزل الله تعالى: ﴿ لَّوۡلَا كِتَٰبٞ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمۡ فِيمَآ أَخَذۡتُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٦٨ ﴾ [الأنفال].

* واستغفر رسول الله ﷺ كما أمره الله، قال الله تعالى: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٥٥ ﴾ [غافر].

* وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿ فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مُتَقَلَّبَكُمۡ وَمَثۡوَىٰكُمۡ ١٩ ﴾ [محمد].

* قال الله ﷻ لنبيه حاثًّا له على الاستغفار: ﴿ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ١٠٦ ﴾ [النساء].

* وقال سبحانه: ﴿ فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ ﴾ [غافر: ٥٥].

* وقال سبحانه: ﴿ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا

﴿٣﴾ ﴾ [النصر]. فكان ﷺ أسرع الخلق امتثالًا لأمر به.

فكان أصحابه يَعدُّون له في المجلس الواحد «ربِّ اغفر لي وتُبْ عليَّ إنك أنت التوَّاب الرحيم»، وفي رواية: «إنك أنت التوابُ الغفور» مئة مرة(١).

• ويقول عن نفسه ﷺ: «والله إني لأستغفرُ الله وأتوبُ إليه في اليوم أكثر من سبعين مرَّة»(٢).

• وقال رسول الله ﷺ: «إنه ليُغَان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مئة مرة»(٣).

• وقال ﷺ: «إني لأتوب إلى الله تعالى في اليوم سبعين مرة»(٤).

• وقال ﷺ: «إني لأستغفرُ اللهَ في اليوم سبعين مرة»(٥).

• وقال ﷺ: «توبُوا إلى الله تعالى، فإني أتوبُ إليه كل يوم مئةَ مرَّة»(٦).

• وقال ﷺ: «يا أيها الناس! توبوا إلى ربكم. فوالله إني لأتوب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ في اليوم مئة مرَّة»(٧).

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٥١٦)، وعبد بن حميد في «المنتخب» (٧٨٤) من حديث ابن عمر..

(٢) أخرجه البخاري «فتح الباري» (١١/ ١٠١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا.

(٣) أخرجه مسلم، انظر «مسلم مع شرح النووي» (١٧/ ٢٣).

(٤) صحيح: رواه النسائي في «الكبرىٰ» وابن حبان (٣/ ٢٠٤)، وصححه العلَّامة شعيب الأرنؤوط، والعَّامة الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٧٧).

(٥) صحيح: رواه الترمذي (٣٢٥٩)، وقال: «حسن صحيح»، وصححه العلَّامة الألباني في «صحيح الجامع» (٢٤٨٣).

(٦) صحيح: رواه البخاري في «الأدب المفرد» (٦٢١)، وصححه العلَّامة الألباني.

(٧) رواه مسلم (٢٧٠٢).

(١٧) حَجْب التوبة والمغفرة عن أصحاب البدع:

ومن عِظَم المغفرة والتوبة، أن حَجَبَها الله عن أهل البدع الذين يُطفئون نور السُّنَّة ببدعهم.

• فعن أنس رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله احتجَرَ التوبةَ على كلِّ صاحبِ بدعةٍ**»[١].

• وعنه رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله حجب التوبة عن كل صاحب بدعةٍ حتى يَدَعَ بدعته**»[٢].

(١٨) سؤال أصحاب الأنبياء المغفرة:

* قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِيٓ أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤٧﴾ ﴾ [آل عمران].

* وقال عن قوم موسى: ﴿ وَلَمَّا سُقِطَ فِيٓ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْاْ أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّواْ قَالُواْ لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ ﴾ [الأعراف].

* وقال تعالى في شأن المهاجرين –كما رجَّحه ابن جرير في تفسيره–:

---

(١) صحيح: ذكره الإمام السيوطي في «الجامع الصغير» (٢٥٧٩)، وعزاه لابن فيل والطبراني في «الأوسط» والبيهقي في «الشعب»، والضياء المقدسي وصححه العلَّامة الألباني.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الأوسط» (٤/ ٢٨١)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ٥٩) وإسحاق بن راهويه في «مسنده» (٣٩٨)، وحسنه الحافظ المنذري في «الترغيب والترهيب»، وصححه العلَّامة الألباني.

﴿ وَالَّذِينَ جَاءُو مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ ﴾ [الحشر].

* وقال تعالى عن إبراهيم عليه السلام والذين آمنوا معه: ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾ رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَاغْفِرْ لَنَا رَبَّنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥﴾ ﴾ [الممتحنة].

(١٩) سؤال الشهداء المغفرة:

* قال تعالى عن سَحَرَةِ فرعون، عند استشهادهم، فقال البَرَرَةُ عند قتلهم: ﴿ إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٣﴾ ﴾ [طه].

* وقال تعالى عنهم: ﴿ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَايَانَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ ﴾ [الشعراء].

(٢٠) سؤال أولي الألباب والمتهجِّدين المغفرة:

* قال تعالى عن أُولي الألباب وسؤالهم المغفرة: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا

﴿يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾﴾ [آل عمران].

* وقال تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴿١٧﴾﴾ [آل عمران].

والمتهجِّدون إذا قاموا إلى تهجُّدهم، يُعلِّمهم سيِّدُهم دعاء الاستفتاح لتهجُّدهم، وكلُّه سؤالٌ للمغفرة بعد حمد الله والثناء عليه؛ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كان النبي ﷺ إذا قام الليل يتهجَّد قال: **«اللهم لك الحمدُ، أنت قيِّم السموات والأرض ومَنْ فيهنَّ، ولك الحمدُ، لك مُلك السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمدُ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهنَّ، ولك الحمد، أنت مَلِك السموات والأرض ومن فيهنَّ،ولك الحمد، أنت الحقُّ، ووعدك الحقُّ، ولقاؤك حقٌّ، وقولك حقٌّ، والجنة حقٌّ، والنار حقٌّ، والنبيون حقٌّ، ومحمد ﷺ حقٌّ، والساعة حقٌّ، اللَّهم لك أسلمتُ، وبك آمنتُ، وعليك توكَّلت، وإليك أنَبْتُ، وبك خاصمت، وإليك حاكمتُ، أنت ربُّنا وإليك المصيرُ، فاغفر لي ما قدَّمتُ وما أخَّرتُ، وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعْلَمُ به مني، أنت المقدِّم وأنت المؤخِّر، أنت إلهي لا إله إلَّا أنت، ولا إله غيرك، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله»**(١).

(٢١) مع المغفرة إلى عرَصات القيامة:

* مع المغفرة حتى بعد المقبرة.. وفضل المغفرة يظهر جليًّا في سؤال الصالحين لها ونورهم يسعى بين أيديهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ

---

(١) رواه البخاري، واللفظ له ما عدا ما بين الأقواس، ومسلم وأبو عوانة وأبو داود وابن نصر والدارمي.. وقد تقدم في «الصلاة».

تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ ﴾ [التحريم].

(٢٢) من كذَّب بالمغفرة لا تُقبل شفاعته:

• عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**إن اللَّعَّانين لا يكونون شهداء ولا شفعاء يوم القيامة**»[(١)].

فاللعن دعاءٌ بالطرد مطلقًا من رحمة الله، وعدم المغفرة.

• وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «**مَن كذَّب بالشفاعة فليس له فيها نصيب**»[(٢)].

(٢٣) التصديق بالمغفرة شعارُ أهل السُّنَّة والجماعة، والتكذيب بها شعارُ أهل البدع:

لله در أهل السنة والجماعة.. فهموا القضيَّة.. وعلموا أنهم بشرٌ فرحموا العاصيَ من البريَّة.. بخلاف أهل البدع من الخوارج الحروريَّة، الذين كفَّروا بالكبيرة أُمَّةَ خير البريَّة.. وأعملوا فيها السيف.

□ قال الإمام الطحاوي في «عقيدته»: «وأهلُ الكبائر من أُمَّةِ محمد

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٤٤٨) ومسلم (٢٥٩٨) وأبو داود (٤٩٠٧) والبخاري في «الأدب المفرد» (٣١٦) وفي «التاريخ الكبير» وأبو نعيم في «الحلية» (٣/ ٢٥٩) وابن حبان (٥٧٤٦) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٨).

(٢) صحيح: أخرجه سعيد بن منصور بسندٍ صحيح. قاله الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٤٢٦).

ﷺ[١] في النار لا يُخلَّدون، إذا ماتوا وهم موحِّدون.

□ قال في «شرح الطحاوية»: «ردّ لقول الخوارج والمعتزلة القائلين بتخليد أهل الكبائر في النار، لكن الخوارج تقول بتكفيرهم، المعتزلة بخروجهم من الإيمان، لا بدخولهم في الكفر، بل لهم منزلة بين منزلتين»[٢].

ومن أصول المعتزلة -مُؤَنثَة الخوارج- الخمسة: الوعيد، والمنزلة بين المنزلتين.

□ **قال ابنُ أبي العِزِّ** في «شرح الطحاوية» (٢/ ٧٩٣): «وأمَّا الوعيد، فقالوا: **إذا أوعد** -الله- بعضَ عبيده وعيدًا، فلا يجوز أن لا يُعذِّبهم ويُخلف وعيده؛ لأنه لا يُخلف الميعاد، فلا يعفو عمن يشاء، ولا يغفر لمن يريد عندهم». تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

□ وقال ابن أبي العِزِّ: «وأمَّا المنزلة بين المنزلتين، فعندهم أن من ارتكب كبيرًا، يخرج من الإيمان ولا يدخل في الكفر» ويُخلَّد في النار.

وعمر وهُو المحدَّث من هذه الأمة، يخبر عن هؤلاء المبتدعة قبل أن يراهم؛ **قال** ابن عباس رضي الله عنهما: خطب عمر رضي الله عنه، وفي الخطبة: «وأنه سيكون من بعدكم قومٌ يُكذِّبون بالرّجْم وبالدَّجّال، وبالشفاعة وبعذاب القبر، وبقومٍ يخرجون من النار بعد ما امْتُحِشوا»[٣].

□ أمَّا أهل السنة والجماعة ورحمتهم للمسلمين، فيقول الطحاوي:

---

(١) ومن كان مسلمًا من الأمم السابقة.

(٢) «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٢٤). تحقيق د. التركي، والشيخ شعيب الأرنؤوط. طبع مؤسسة الرسالة.

(٣) رواه أحمد في «مسنده»، وهذا الأثر له شواهد.

«ولا نُنزل أحدًا منهم جنَّةً ولا نارًا».

□ قال الشارحُ ابنُ أبي العِزِّ: «يريد أنَّا لا نقول عن أحد معيَّن من أهل القبلة: إنه من أهل الجنة أو من أهل النار. إلَّا من أخبر الصادق ﷺ أنه من أهل الجنة؛ كالعشرة ﷺ. وإن كنا نقول: إنه لا بُدَّ أن يدخل النار من أهل الكبائر، مَنْ يشاء الله إدخاله النار، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين، ولكنَّا نقف في الشخص المعيَّن، فلا نشهد له بجنةٍ ولا نارٍ، إلَّا عن علْم؛ لأن حقيقة باطنه وما مات عليه، لا نُحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء»[1].

(٢٤) شغلُ الصالحين: الاستغفارُ عَقِيب الطاعاتِ، وفي كلِّ حِين:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأربابُ العزائم والبصائر أشدَّ ما يكونون استغفارًا عَقِيب الطاعات؛ لشهودِهم تقصيرهم فيها، وتركَ القيام لله بها كما يليقُ بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمرُ، لما أقدَمَ أحدُهم على مثل هذه العبودية، ولا رَضِيَها لسيِّده.

* وقد أمر الله تعالى وفده وحُجَّاج بيته، بأن يستغفروا عقيب إفاضتهم من عرفات، وهو أجلُّ المواقف وأفضلها، فقال تعالى ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ ۚ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ ۖ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴿١٩٨﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾ ﴾: [البقرة].

---

(١) «شرح الطحاوية» (٢/ ٥٣٨).

* وقال تعالى: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾ [آل عمران].

□ قال الحسن: «مَدُّوا الصلاة إلى السَّحَر، ثم جلسوا يستغفرون اللهَ عَزَّوَجَلَّ».

• وفي «الصحيح» أن النبي ﷺ كان إذا سلَّم من الصلاة استغفر ثلاثًا، ثم قال: «**اللهمَّ أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**».

* وأمره الله تعالى بالاستغفار بعد أداء الرسالة والقيام بما عليه من أعبائها وقضاء فرض الحجِّ، واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أُنزلت عليه: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ٣﴾ [النصر].

ومن ها هنا فَهِم عمرُ وابنُ عباس رضي الله عنهم أن هذا أَجَلُ رسول الله ﷺ أعلمه به، فأمره أن يستغفره عَقِيب أداء ما كان عليه، فكأنه إعلامٌ بأنك قد أدّيتَ ما عليك، ولم يَبْقَ عليك شيء، فاجعل خاتمتَه الاستغفار، كما كان خاتمةَ الصلاة والحج وقيام الليل.

• وخاتمةُ الوضوء أيضًا أن يقول ـ بعد فراغه ـ : «**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهدُ أنْ لا إله إلَّا أنت، أستغفرُك وأتوب إليك. اللهمَّ اجعلْني من التَّوّابين واجعلني من المتطهِّرين**».

فهذا شأنُ من عَرف ما ينبغي لله ويليقُ بجلاله من حقوق العبودية وشرائطها، لا جهلُ أصحاب الدعاوي وشطحاتهم.

□ وقال بعضُ العارفين: «متى رَضِيتَ نَفْسك وعملَك لله، فاعلمْ أنه غيرُ راضٍ به، ومَنْ عرف أن نفسه مأوى كلِّ عيبٍ وشرٍّ، وعمله عُرضةٌ

لكلِّ آفةٍ ونقص، فكيف يَرضى لله نفسه وعمله؟!».

□ ولله درُّ الشيخ أبي مَدْين حيث يقول: «من تحقَّق بالعبودية، نظرَ أفعالَهُ بعين الرياء، وأحوالَه بعين الدعوى، وأقوالَه بعين الافتراء، وكلَّما عظُم المطلوب في قلبك، صَغُرَتْ نَفْسُك عندك، وتضاءلت القيمة التي تبذلها في تحصيله. وكلَّما شهدتَ حقيقة الربوبية، وحقيقة العبودية، وعرفت الله، وعرفت النَّفْس، وتبيَّن لك أن ما معك من البضاعة لا يصلح للملك الحق ولو جئت بعَمَلِ الثقلين، خشيتَ عاقبتَهُ، وإنَّما يقبله بكرمه وجوده وتفضُّله، ويُثيبك عليه أيضًا بكرمه وجوده وتفضُّله»[١].

أمَّا إذا لم تصحَّ توبتُك واستغفارك، وكانت توبةَ علَّةٍ واستغفارَ علَّة، فاستغفارك يحتاج إلى استغفارٍ.

فيا عَفُوُّ، عفوك.. عند السَّكرات عفوك، وعند المهات عفوك، وفي القبور عفوك، وفي العَرَصات عفوك، وعند تطايُر الصحف عفوك، وعند الميزان عفوك، وعند العرض عفوك، وعند الصراط عفوك.. دائمًا وأبدًا مع كلِّ نَفَسٍ وفي كل حينٍ.. يا عَفُوُّ، عفوك.

(٢٥) والله أهل التقوى وأهل المغفرة يفتح باب التوبة لمرتكبي الكبائر:

فتح الله عَزَّ وَجَلَّ بابَ التوبة والإنابة أمام أهل الكبائر، حتى لا يَقنَطَ أحدٌ من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ.

* قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٥ - ١٧٦).

صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾

[الفرقان].

وفتح بابَ التوبة أمام المفسدين قطاع الطريق الذين يحاربون الله ورسوله.

* قال تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَاۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة].

* وفتح بابَ التوبة والمغفرة أمام الذين أضاعوا الصلاة، فقال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا ﴿٦٠﴾﴾

[مريم].

* وفتح باب المغفرة والتوبة أمام من قذفوا المحصنات الغافلات المؤمنات بالفاحشة والزنا، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾ [النور].

□ ومن رحمة الله أنه فتح باب التوبة أمام من قَتل تسعةً وتسعين نفسًا، ولما صَدَق اللهَ في توبته، قبضته ملائكة الرحمة.

(٢٦) فتحُ باب التوبة أمام الكافرين: اليهود والنصارى ما داموا في دار الدنيا:

□ وأصحابُ الأخدود -الذين كفروا وحرَّقوا المؤمنين وجلسوا على حافة الأخدود ينظرون إلى النار تلتهم أجسادَ المؤمنين-، مع كل هذه الموبقات والجرائم المُهلكات، فَتح الله لهم باب التوبة كي يتوبوا، فقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا۟ فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾﴾ [البروج].

يقتلون أولياءَه ثم يأمرهم بالتوبة! فما أعظمَ الله وما أرحَمه وأحلمه!.

* وأمام المنافقين: قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ﴿١٤٥﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ وَأَصْلَحُوا۟ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُوا۟ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

* وفتح باب التوبة في الدنيا أمام النصارى الكافرين الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم، وأمام اليهود الذين قالوا إن الله ثالثُ ثلاثة، فقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾﴾ [النساء].

(٢٧) فتح باب التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها:

• قال رسول الله ﷺ: **«فَتح اللهُ بابًا للتوبة من المغرب، عرضُه مسيرةُ سبعين عامًا، لا يُغلَقُ حتى تطلعَ الشمس من نحوه»**[(١)].

---

(١) حسن: رواه البخاري في «التاريخ» عن صفوان بن عسال، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤١٩١).

• وقال ﷺ: «للتوبة بابٌ بالمغرب، مسيرةَ سبعين عامًا، لا يزال كذلك حتى يأتي بعضُ آيات ربك، طلوعُ الشمس من مغربها»[(١)].

• وقال رسول الله ﷺ: «إن الله ﷻ جَعل بالمغرب بابًا مسيرةُ عرضِه سبعون عامًا للتوبة لا يُغلق ما لم تطلع الشمسُ مِن قِبَلِه، وذلك قول الله ﷻ: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ﴾»[(٢)] [الأنعام: ١٥٨].

• وقال رسول الله ﷺ: «لا تنقطعُ الهجرة، حتى تنقطعَ التوبة، ولا تنقطعُ التوبة حتى تطلعَ الشمس من مغربها»[(٣)].

• عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «قالت قريشٌ للنبي ﷺ ادْعُ لنا ربَّك أن يجعلَ لنا الصَّفا ذهبًا ونؤمنُ بك. قال: «وتفعلون؟». قالوا: نعم. فدعا فأتاه جبريل عليه السلام فقال: إنَّ ربك يقرأُ عليك السلام ويقول: «إنْ شئت أَصبحَ لهم الصَّفا ذَهَبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذَّبته عذابًا لا أُعَذِّبه

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن صفوان ابن عسال، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (رقم ٥١٨١).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٣٥، ٣٥٣٦)، وابن ماجه (٤٠٧٠) وأحمد (٤/ ٢٤٠)، (٤/ ٢٤١)، والطيالسي (٢٧٨٧ ـ منحة المعبود)، والبغوي في «شرح السنّة» (١٣٠٥)، و«معالم التنزيل» (٢/ ١٤٤)، وابن جرير الطبري في «جامع البيان» (٨/ ٧٢). وهذا إسناد حسن لأن عاصم بن أبي النجود ـ على إمامته في القراءات ـ حَسَنُ الحديث، لكن تابع زبيد اليامي عاصم بن أبي النجود عند ابن جرير (٢/ ٧٨). زبيد اليامي ثقة ثبت؛ فالحديث صحيح. والله أعلم، وقال الترمذي: «حسن صحيح»، وحسنه العلامة الألباني والعلامة شعيب الأرنؤوط.

(٣) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٢٤٢، ٣٤٥)، والحاكم (٤/ ٢٤٠)، وصححه ووافقه الذهبي، وهو كما قالا. وقال العلاّمة شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره».

أحدًا من العالمين، وإنْ شئت فتحتُ لهم باب التوبة والرحمة. قال: بل باب التوبة والرحمة».

(٢٨) التحذير من اليأس والقنوط من رحمة الله:

* جعل اللهُ اليأس والقنوط من رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ كبيرةً من الكبائر، فقال تعالى: ﴿ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الحجر].

* وقال تعالى: ﴿ يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف].

* وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ ﴾ [البقرة: ١٩٥].

□ أخرج الطبري بإسناد صحيح عن البراء بن عازب في الآية ﴿ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ ﴾ قال: «هو الرجل يُصيبُ الذنوب، فيُلقى بيده إلى التهلكة فيقول: لا توبة لي».

□ وبإسنادٍ صحيح عن ابن سيرين قال: «سألتُ عَبيدةَ السَّلْماني عن ذلك فقال: هو الرجل يُذنب الذنب فيستسلم، ويُلقي بيده إلى التهلكة ويقول: لا توبة له».

□ وقال الطبري بعد أن أورد جملةَ أقوال في تفسير الآية: «وكذلك الآيسُ من رحمة الله لذنبٍ سلف منه مُلْقٍ بيديه إلى التهلكة؛ لأن الله قد نهى عن ذلك فقال: ﴿ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [يوسف].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «**الكبائرُ: الشرك بالله، والإياسُ من رَوْح**[1]

---

(١) رَوْح الله: رحمة الله.

الله، والقنوط[(١)]»[(٢)].

• وفي «الصحيح» عن النبي ﷺ فيما يحكي عن ربه عز وجل قال: «**أذنبَ عبدٌ ذَنْبًا فقال: اللهم اغفر لي ذنبي فقال -تبارك وتعالى-: أذنب عبدي ذنبًا، فعلم أنه له ربًّا يغفر الذَّنْب، ويأخذ بالذنب، ثم عاد فأذنب فقال. أي رب، اغفر لي ذنبي، فقال -تبارك وتعالى-: أذنب عبدي ذنبًا، فعَلِمَ أن له ربًّا يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، اعمل ما شئت، فقد غفرتُ لكَ**»[(٣)].

• وعن عمر رضي الله عنه أن رجلًا كان على عهد النبي ﷺ، كان اسمه عبدالله وكان يلقب حمارًا وكان يُضحِك رسول الله، وكان النبي ﷺ قد جَلَدَه في الشراب، فأُتِي به يومًا، فأمر به فجُلِد، فقال رجل من القوم: اللهم الْعَنْه، ما أكثَرَ ما يُؤتَى به. فقال النبي ﷺ: «**لا تلعنوه، فوالله مَا عَلِمْتُ أنه يحب اللهَ ورسولَه**»[(٤)].

وفي رواية: أن رجلًا قال: مَا لَه أخزاه الله! فقال رسول الله ﷺ: «**لا تكونوا عونَ الشيطان على أخيكم**»[(٥)].

• وعند أبي يعلى: «**لا تلعنوه، فإنه يحبُّ اللهَ ورسوله**»[(٦)].

• وقال رسول الله ﷺ: «**ثلاثةٌ لا تسألُ عنهم: رجلٌ يُنازِعُ الله إزارَه، ورجلٌ يُنازعُ الله رداءه؛ فإن رداءه الكبرياء، وإزاره العزُّ، ورجلٌ في شك**

---

(١) القنوط: انقطاع الأمل.

(٢) حسن: رواه البزار عن ابن عباس، وحسَّنه الألباني في «السلسلة الصحيحة» رقم (٢٠٥١) و«صحيح الجامع» (٤٦٠٣).

(٣) أخرجه البخاري (٧٥٠٧)، ومسلم (٢٧٥٨) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري (٦٧٨٠).

(٥) رواه البخاري (٦٧٨١).

(٦) رواه أبو يعلى (١/ ١٦١) بسندٍ حسن.

من أمر الله [(١)]، والقنوطُ من رحمة الله» [(٢)].

(٢٩) ترهيب من يُقنِّط الناس في رحمة الله ومغفرته:

• عن جندب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ حدَّث: «أَنَّ رجلًا قال: والله لا يغفرُ اللهُ لفلان، وإن الله تعالى قال: من ذا الذي يتألَّى عَلَيَّ أن لا أغفر لفلان! فإني قد غفرت لفلان وأحبطتُ عملك» [(٣)].

• وقال رسول الله ﷺ: «كان رجلان في بني إسرائيل مُتواخيَيْن، فكان أحدهما يُذنِب، والآخر مجتهدٌ في العبادة، فكان لا يزالُ المجتهد يَرى الآخرَ على الذَّنْب فيقول: أَقصِرْ، فوجَدَه يومًا على ذنب، فقال له: أقصرْ، فقال: خَلِّني وربِّي، أَبُعِثتَ عَلَيَّ رقيبًا، فقال: والله لا يغفرُ اللهُ لك -أوْ لا يُدْخِلك الله الجنة-. فقَبَضَ اللهُ أرواحَهُما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهدُ، أكُنتَ بي عَالمًا؟ أو: كنتَ على ما في يدي قادِرًا؟ وقال للمذُنْب: اذهب فادخلِ الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذْهبُوا به إلى النار» [(٤)].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «قال رجلٌ: لا يغفرُ اللهُ لفلان! فأَوحى الله

---

(١) أي: في البعث وأحوال الآخرة.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٦/ ١٩) والبخاري في «الأدب المفرد» (٥٩٠)، وأبو يعلي، والطبراني في «الكبير» (١٨/ ٣٠٦)، وابن حبان (٤٥٥٩)، وابن عساكر والحاكم (١/ ١١٩) عن فضالة بن عُبيد رضي الله عنه، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٥٤٢)، و«صحيح الجامع» (٣٠٥٩)، و«تخريج السنة» لابن أبي عاصم (٨٩)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٣) رواه مسلم (٢٦٢١).

(٤) رواه أبو داود (٤٩٠١)، وصححه العلاَّمة الألباني.

تعالى إلى نبي من الأنبياء: إنها خطيئةٌ، فلْيستقبلِ العمل [(١)]»[(٢)].

(٣٠) **سعةُ رحمة الله ﷻ وعظيم مغفرته التي لا تحيط بها عقول البشر:**

• قال رسولُ الله ﷺ: «إذا أسلَم العبدُ فحسُن إسلامه، يُكفِّرُ اللهُ عنه كلَّ سيئةٍ كان أزلَفَها، وكان بعد ذلك القصاص، الحسنة بعشر أمثالها إلى سَبْعِمئة ضِعْف، والسيئةُ بمثلها، إلَّا أن يتجاوز الله عنها»[(٣)].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «إذا عَمِلتَ سيئةً، فأتبِعْها حسنةً تمحُها»[(٤)].

• وقال ﷺ: «أسرف رجلٌ على نفسه [(٥)]، فلما حضره الموتُ أوصى بَنيه فقال: إذا أنا متُّ فأحرقوني، ثم اسحقُوني، ثم أذْروني [(٦)] في البحر، فوالله لئن قَدَر [(٧)] عليَّ ربي لَيُعذبنِّي عذابًا ما عذَّبه أحدًا، ففعلوا ذلك به، فقال الله للأرض: أدِّي [(٨)] ما أخذتِ، فإذا هو قائمٌ، فقال: ما حملك على ما

---

(١) أي يبدأ من جديد في فعل الطاعات، فما سبق قد أحبطه الله؛ لحُكمه على الله بأنه لا يغفر لفلان.

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٢/ ١٦٥) عن جندب، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (٢٠١٤)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٣٤٧).

(٣) رواه البخاري (٤١) والنسائي (٤٩٩٨) عن أبي سعيد.

(٤) صحيح: رواه أحمد في «مسنده» (٥/ ١٦٩) عن أبي ذر، وصححه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٣٧٣)، و«صحيح الجامع» رقم (١٣٧٣)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «حسن لغيره».

(٥) أي: في المعاصي.

(٦) انثروني وفرّقوني.

(٧) أي: استطاع جمعي وبعثي.

(٨) يعني: رُدِّي.

صَنَعْتَ؟ قال: خشيتُكَ يا رب، فغفر له بذلك»[١].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «إن الله تعالى خَلق الرحمةَ يوم خلقها مئةَ رحمة، فأمسَكَ عنده تِسْعًا وتسعين رحمة. وأرسل في خلقِه كلِّهم رحمةً واحدةً، فلو يعلمُ الكافرُ بكُلِّ الذي عند الله من الرحمة لم ييأسْ من الجنة، ولوْ يعلمُ المؤمنُ بالذي عند الله من العذاب لم يأمنْ منَ النار»[٢].

• وقال رسولُ الله ﷺ: «إن الله تعالى يبسُطُ يدَه بالليل ليتوبَ مُسيءُ النهار، ويبْسُط يدَه بالنهار ليتوبَ مُسِيءُ الليل، حتى تطلعَ الشمس من مغربها»[٣].

• وقال رسول الله ﷺ: «إن رَجُلًا حَضرهُ الموت فلمَّا أيس من الحياة أوصى أهله إذا أنا متُّ فاجمعوا لي حطبًا كثيرًا جزْلًا[٤]، ثم أوقدوا فيه نارًا، حتى إذا أكلَتْ لحمِي، وخَلَصَتْ إلى عظمي فامتُحِشْتُ[٥] فخذوها فاطْحنُوها، ثم انظروا يومًا راحًا[٦] فاذْرُوها في اليمِّ[٧]، ففعلوا ما أمرهمْ فجمعه الله، وقال له: لمَ فعلتَ ذلك؟ قال: مِن خَشيتكَ، فغفر له»[٨].

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٦٩) والبخاري (٣٢٩٤) ومسلم (٢٧٥٦) عن أبي هريرة.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٤) ومسلم (٢٧٥٢) والترمذي عن أبي هريرة.

(٣) رواه أحمد (٤/ ٣٩٥) ومسلم (٢٧٥٩) من حديث أبي موسىٰ الأشعري.

(٤) أي: غليظًا قويًّا.

(٥) فامتُحِشْتُ: فاحْتَرَقتُ.

(٦) أي: شديد الرياح.

(٧) البحر.

(٨) رواه أحمد (٤/ ١١٨) و(٥/ ٣٨٣) والبخاري (٣٢٦٦) ومسلم (٢٩٤٣) والنسائي (٤/ ١١٣)، وابن ماجه عن حذيفة وأبي مسعود.

• وقال رسول الله ﷺ: «إن رجلًا كان قبلكم رغسه [١] الله مالًا. فقال لبنيه لما حُضِر: أيُّ أبٍ كنتُ لكم؟ قالوا: خير أبٍ، قال: إني لم أعملْ خيرًا قطُّ، فإذا مُتُّ فاحرقوني، ثم اسحقوني، ثم ذرُّوني في يوم عاصفٍ [٢]، ففعلوا، فجمعه الله، فقال: ما حملك؟ قال: مخافتُك، فتلقَّاه برحمته» [٣].

• وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: من عَلِم أني ذو قدرةٍ على مغفرة الذنوب غفرتُ له ولا أبالي، ما لم يشرك بي شيئًا» [٤].

• وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدم! إنك ما دعوتَني ورجوتَني، غفرتُ لك -على ما كان منك- ولا أُبالي، يا ابنَ آدم لو بلغت ذُنوبُك عَنان [٥] السماء، ثم استغفرتني، غفرتُ لك ولا أُبالي، يا ابن آدم! لو أنك أتيتني بقُراب [٦] الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشركْ بي شيئًا، لأتيتك بقُرَابها مغفرة» [٧].

• وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله سيخلِّصُ [٨] رجلًا منْ أمَّتي على

---

(١) الرَّغْس: السعة في الرزق.

(٢) تهب فيه الريح الشديدة.

(٣) رواه أحمد (٣/ ٦٩) والبخاري (٣٢٩١) ومسلم (٢٧٥٧) عن أبي سعيد.

(٤) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» والحاكم عن أنس، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٤٣٣١).

(٥) سحاب.

(٦) أي: بما يُقارب ملئها.

(٧) حسن: رواه أحمد (٥/ ١٤٨) والترمذي (٣٥٤٠) والضياء عن أنس، وحسّنه الألباني في «الصحيحة» رقم (١٢٧)، و«صحيح الجامع» رقم (٤٣٣٨)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٨) سيُنجيّ.

رُؤوسِ الخلائقِ يومَ القيامةِ، فينشُرُ عليهِ تِسعةً وتسعينَ سِجْلًا [١]، كلُّ سِجْلٍ مثلُ مدِّ [٢] البَصرِ، ثمَّ يقولُ: أتنكِرُ منْ هذا شيئًا؟ أظلَمَكَ كتَبَتي الحافِظونَ؟ [٣] فيقولُ: لا يا رَبِّ، فيقولُ: أفلَكَ عذرٌ؟ فيقولُ: لا يا رب، فيقول: بَلى، إنَّ لكَ عِندنا حسنةً، وإنهُ لا ظلمَ عليكَ اليومَ، فتخرجُ بطاقةٌ [٤] فِيها أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا الله، وأشهدُ أنَّ محمدًا عبدُه ورسولهُ، فيقولُ: احضُرْ وزنكَ [٥]. فيقولُ: يا ربِّ! ما هذهِ البطاقةُ مع هذه السجلاتِ؟ فيقالُ: فإنكَ لا تُظلمُ، فتوضعُ السجلاتُ في كِفَّةٍ، والبطاقةُ في كِفَّةٍ، فطاشَتِ [٦] السجلاتُ، وثقلتِ البطاقةُ، ولا يثقلُ معَ اسمِ الله تعالى شيءٌ» [٧].

• وقال رسول الله ﷺ: «يُصاحُ [٨] برجلٍ من أمتي يوم القيامة على رؤوس الخلائق، فينُشر له تسعةٌ وتسعون سِجْلًا، كلُّ سجلٍ مدُّ البصر، ثم

---

(١) السجل: الكتاب الكبير.

(٢) أي: منتهاه.

(٣) يعني: ملك اليمين وملك الشمال.

(٤) أي: رُقعة صغيرة.

(٥) أي: احضر وزن حسناتك وسيئاتك.

(٦) خفَّت.

(٧) صحيح: رواه أحمد (٢/ ٢١٣) والترمذي (٢٦٣٩) والحاكم في «المستدرك» (١/ ٤٦)، وابن حبان (٢٢٥) والبيهقي في «الشعب»، وصححه الحاكم وأقره الذهبي، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٣٥)، و«شرح الطحاوية» (٥٦٧)، و«صحيح الجامع» (١٧٧٦)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٨) أي: يُنَادَىٰ عليه.

يقول الله تبارك وتعالى: هل تُنكِر من هذا شيئًا؟ فيقول: لا يا ربِّ، فيقول: أَظَلَمَكَ كَتَبَتي الحافظون؟ فيقول: لا يا ربِّ، ثم يقول: أَلَكَ عذرٌ، أَلَكَ حسنةٌ؟ فيَهابُ [١] الرجل فيقول: لا، فيقول: بلى، إن لكَ عندنا حسنةً، وإنه لا ظلمَ عليك اليوم، فتُخرجُ له بطاقةٌ فيها أَشهدُ أن لا إله إلَّا الله، وأنَّ محمدًا عبدُه ورسوله، فيقول: يا ربِّ ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فيقول: إنك لا تُظلَمُ، فتوضع السِّجْلات في كفَّةٍ، والبطاقة في كفَّةٍ، فطاشت السجلات، وثَقُلتِ البطاقة»[٢].

• وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدمَ! مَهْما عَبَدْتَني ورَجوْتَني ولم تُشرِك بي شيئًا غَفرتُ لك على ما كان منك، وإنِ استقْبلتَني بملءِ السماءِ والأرضِ خَطايا وذُنوبًا استقبلتُكَ بمِلئِهنَّ منَ المغفرةِ، وأَغفِرُ لكَ ولا أُبالي»[٣].

• وقال رسول الله ﷺ: «قالَ الله تعالى: إذا تقرَّب إليَّ العَبدُ شِبرًا تقرَّبتُ إليهِ ذِراعًا، وإذا تقربَ إليَّ ذِراعًا تقرَّبتُ مِنْهُ باعًا، وإذا أتاني مَشْيًا أتيتُه هَروَلة»[٤].

• وقال ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدمَ! إنْ ذكَرتَني في نفسِكَ ذكَرتُكَ

---

(١) أي: فيخاف.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٣٠٠)، والحاكم في «المستدرك» (١/ ٧١٠) عن ابن عمرو، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٨٠٩٥).

(٣) صحيح: رواه الطبراني في «المعجم الكبير» عن أبي الدرداء، والبيهقي في «الشعب» (٢/ ١٦)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٤٣٤١).

(٤) رواه البخاري (٧٠٩٨) عن أنس و(٦٩٧٠) عن أبي هريرة، ورواه البيهقي في «شعب الإيمان» عن سلمان.

في نفْسي، وإنْ ذكَرتَني في مَلإٍ ذكَرتُك في مَلإٍ خيْرٍ منْهُم، وإنْ دَنَوْتَ مني شِبْرًا دنوْتُ منْكَ ذِراعًا، وإنْ دنوتَ مني ذِراعًا، دنوتُ منكَ باعًا، وإنْ أتيتَني تَمشي، أتيْتُ إليكَ أُهَروِلْ»[1].

• وقال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى: يا ابنَ آدمَ! قُمْ إليَّ أَمْشِ إليكَ، وامش إليَّ أُهَرْوِلُ إليكَ»[2].

• وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: أَنا عند ظن عبدي بي؛ وأنا معه حين يذكرني، والله لله أفرَحُ بتوبة عبده من أحدكم يجِدْ ضالَّتَهُ بالفلاةِ، ومن تقرَّب إليَّ شبرًا، تقرَّبت إليه ذراعًا، ومن تقرَّبَ إليَّ ذراعًا، تقرَّبت إليه باعًا، وإن أقبل إليَّ يمشي، أقبلتُ إليهِ أُهرولُ»[3].

• وقال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى: من عمِلَ حسنةً، فله عشرُ أمثالها، وأَزيدُ، ومن عمِلَ سيِّئةً فجزاؤها مثلها، أو أغفِرُ، ومن عمِلَ قُرابَ الأرضِ خطيئةً، ثم لقِيَني لا يشرك بي شيئًا جعلتُ له مثلها مغفِرةً، ومن اقتربَ إليَّ شبرًا، اقترَبتُ إليهِ ذراعًا، ومن اقتربَ إليَّ ذراعًا، اقترَبتُ إليه باعًا، ومن أتاني يمشي، أتيتُهُ هرولةً»[4].

• وقال ﷺ: «لوْ أَخطأتمْ حتَّى تبلُغَ خطَايَاكُم السَّماءَ، ثمَّ تُبْتمْ لتَابَ الله عليكمْ»[5].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٧٥).

(٢) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٤٧٨) عن رجل، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢٢٨٧)، و«صحيح الجامع» (٤٣٤٠)، وصححه الشيخ شعيب الأرنؤوط.

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٧) عن أبي هريرة.

(٤) رواه أحمد (٥/ ١٥٣)، ومسلم (٢٦٨٧) وابن ماجه (٣٨٢١) عن أبي ذر.

(٥) حسن: رواه ابن ماجه (٤٢٤٨) عن أبي هريرة، وحسنه البوصيري في «الزوائد» =

• وقال رسول الله ﷺ: «لوْ أَنَّ العبادَ لم يُذْنِبوا لَخَلَقَ الله خَلْقًا يُذْنِبون ثمَّ يستغفِرونَ، ثمَّ يَغفِرُ لهمْ، وهُوَ الغفور الرَّحيمُ»(١).

• وقال ﷺ: «لو تَعلمونَ قَدْرَ رحمةِ الله لاتَّكلتُمْ عليها»(٢).

• وقال ﷺ: «لو لم تُذْنِبوا لجاءَ الله تعالى بقوْمٍ يُذنِبونَ؛ ليَغفِرَ لهم»(٣).

• وقال ﷺ: «لولا أنَّكم تذنبون، لَخَلَقَ الله خلْقًا يذنبون، فيغْفِر لهم»(٤).

• وقال ﷺ: «لو يعلمُ المؤمنُ ما عند الله من العقوبة، ما طَمِع في الجنة أحد، ولو يعلمُ الكافرُ ما عند الله من الرحمة، ما قَنِط من الجنة أحد»(٥).

• وقال ﷺ: «لَيَتمنَّيَنَّ أقوامٌ لوْ أكثَروا منَ السيِّئاتِ، الذينَ بدَّلَ الله عَزَّ وَجَلَّ سيئاتِهمْ حَسناتٍ»(٦).

والألباني في «الصحيحة» (٩٠٠)، و«صحيح الجامع» (٥٢٣٥).

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٧٤) عن ابن عمرو، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٦٧)، و«صحيح الجامع» (٥٢٤٣).

(٢) صحيح: رواه البزار عن أبي سعيد، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٢١٦٧)، و«صحيح الجامع» (٥٢٦٠).

(٣) صحيح: رواه أحمد (١/ ٢٨٩) عن ابن عباس، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٩٧٠)، و«صحيح الجامع» (٥٣٠١)، وقال الشيخ شعيب الأرنؤوط: «صحيح لغيره».

(٤) روا مسلم (٢٧٤٨) والترمذي (٣٥٣٩) عن أبي أيوب.

(٥) رواه مسلم (٢٧٥٥) والترمذي (٣٥٤٢) عن أبي هريرة.

(٦) حسن: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨١) عن أبي هريرة، وصححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وحسنه الألباني في «الصحيحة» (٢١٧٧)، و«صحيح الجامع» (٥٣٥٩).

• وقال ﷺ: «من تابَ إلى الله قبلَ أن يغرغرَ، قبِل الله منهُ»(١).

وفي رواية: «إن الله تعالى يقبل..».

• وقال ﷺ: «مَن تاب قبل أن تطلعُ الشمس من مغربها، تاب الله عليه»(٢).

• وقال ﷺ: «مَن زنى خرج منه الإيمان، فإن تاب تاب الله عليه»(٣).

• وقال ﷺ: «النَّدمُ توْبةٌ»(٤).

• وقال رسول الله ﷺ: «النَّدمُ توبةٌ، والتائبُ من الذنْبِ كمنْ لا ذنْبَ لهُ»(٥).

• وقال رسول الله ﷺ: «والذي نفْسي بيدِهِ، لو لم تُذنِبوا لذهَبَ الله بكم، ولجاءَ بقومٍ يذنبونَ فيستغفرونَ الله فيَغفرُ لهم»(٦).

• وقال ﷺ: «لو لم تكونوا تُذنبون، لخِفْتُ عليكم ما هو أكبرُ من ذلك؛ العُجْبَ العُجْب»(٧).

---

(١) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٤/ ٢٨٦) عن رجل، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦١٣٢).

(٢) رواه مسلم (٢٧٠٣) عن أبي هريرة.

(٣) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٧٤).

(٤) صحيح: رواه أحمد، والبخاري في «التاريخ» وابن ماجه، والحاكم عن ابن مسعود، والحاكم والبيهقي في «شعب الإيمان» عن أنس، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٢). وقد تقدم.

(٥) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٣٠٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢١٠) عن أبي سعيد الأنصاري، وحسّنه الألباني في «صحيح الجامع» (٦٨٠٣).

(٦) رواه أحمد (٢/ ٣٠٩) ومسلم (٢٧٤٩) عن أبي هريرة.

(٧) حسن: رواه البيهقي في «شعب الإيمان» والبزار عن أنس، وقال الحافظ المنذري: «إسناده جيد». وحسّنه العلامة الألباني في «الصحيحة» (٦٥٨)، =

• وقال رسول الله ﷺ: «يجيء يومَ القيامة ناسٌ من المسلمين بذنوب أمثال الجبال، يغفرُها الله لهم، ويضعُها على اليهود»[(١)].

• وقال رسول الله ﷺ: «يخرج من النار أربعةٌ، فيُعرضون على الله، فيلتفت إليه أحدهم فيقول: أي ربِّ! إذ أخرجتني منها لا تُعِذْني فيها، فينجيه الله منها»[(٢)].

• وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى يُدنِي[(٣)] المؤمِنَ، فيضعُ عليهِ كَنَفَهُ[(٤)] وسترَهُ منَ الناسِ، ويقرِّرهُ[(٥)] بذنوبِهِ فيقولُ: أتعرفُ ذنبَ كذا؟ أتعرِفُ ذنبَ كذا؟ فيقولُ: نعمْ أيْ ربِّ، حتَّى إذا قرره بذنوبِهِ ورأى في نفسِهِ أنهُ قد هلكَ، قالَ: فإني قد سترتُها عليكَ في الدُّنيا، وأنا أغفِرُها لك اليومَ، ثمَّ يُعطَى كتابَ حسناتِهِ بيمينِهِ، وأمَّا الكافرُ والمنافقُ فيقولُ الأشهادُ[(٦)]: هؤلاءِ الذينَ كذبُوا على ربِّهِمْ ألا لعنةُ الله على الظَّالِمينَ»[(٧)].

• وقال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله تعالى خلقَ الرحمةَ يومَ خلقَها مئة رحمةٍ، فأمسكَ عندهُ تسْعًا وتِسعينَ رحمةً. وأرسلَ في خلقِهِ كلهمْ رحمةً واحِدةً، فلوْ يعلمُ الكافِرُ بكُلِّ الذي عندَ الله منَ الرحمةِ لم ييأسْ منَ الجنَّةِ، ولوْ يعلمُ

و«صحيح الجامع» (٥٣٠٣) و«صحيح الترغيب» (٢٩٢١).

(١) رواه مسلم (٢٧٦٢) عن أبي موسىٰ.

(٢) رواه أحمد (٣/ ٢٨٥) ومسلم (١٩٢) عن أنس.

(٣) يُقرِّب.

(٤) أي: سِتْرَه.

(٥) يجعله يعترف به.

(٦) أي: الحاضرون يوم القيامة من الأنبياء والملائكة.

(٧) رواه أحمد (٢/ ٧٤) والبخاري (٢٣٠٩) ومسلم (٢٧٦٨) والنسائي وابن ماجه (١٨٣) عن ابن عمر.

المؤمنُ بالذي عندَ الله مِنَ العذابِ لم يأمَنْ منَ النارِ»[(١)].

(٣١) التوبة النَّصُوح تَجُبُّ ما قبلها:

* قال تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾﴾ [النساء].

* وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التحريم: ٨].

• قال رسول الله ﷺ: «التائبُ من الذنب كمَن لا ذنبَ له»[(٢)].

□ سُئل ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: أأُسبِّحُ أو أستغفر؟ فقال: «الثوبُ الوسخ أحوجُ إلى الصابون مِن البخور»[(٣)].

(٣٢) التوبة النصوح تبدِّل السيئات حسنات:

* قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان].

(٣٣) التوبة والاستغفار يرفعان الدرجات:

• قال رسول الله ﷺ: «إن اللهَ عَزَّ وَجَلَّ ليرفعُ الدرجةَ للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنَّى لي هذه؟! فيقول: باستغفار ولدِك لك»[(٤)].

---

(١) رواه البخاري (٦١٠٤) ومسلم عن أبي هريرة.

(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٠) عن عبد الله مسعود رضي الله عنه.

(٣) ذكره ابن حجر العسقلاني في «فتح الباري» (١١/ ١٠٣) وأقرّه واستحسنه.

(٤) حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٥٠٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعًا، وحسنه العلاّمة شعيب الأرنؤوط.

(٣٤) التوبة سبب للفلاح:

* قال تعالى: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور].

* وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [القصص].

(٣٥) التوبة النصوح سبب للحياة الهادئة المطمئنة الطيِّبة:

* قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾﴾ [هود].

(٣٦) التوبة سبب لحلول البركات من السماء والأرض:

* قال تعالى على لسان نبيه هود عليه السلام: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود].

* وقال على لسان نبيه نوح عليه السلام: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح].

* وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَٱعْتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخْلَصُواْ دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٤٦﴾﴾ [النساء].

فالتوبة والاستغفار سبب لسَعَة الرزق والإمدادِ بالمال والبنين.

(٣٧) والتوبة سبب لقوة البدن:

كما جاء في سورة هود في الآية (٥٢) التي مرَّت سابقًا.

(٣٨) التوبة حياة للقلب وسبب لنقائه وصفائه وبياضه:

* قال تعالى: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤].

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**إن المؤمنَ إذا أذنب، كانت نُكتةٌ سوداء في قلبه، فإنْ تاب ونَزَع واستغفر، صُقِل قَلْبُه، وإن زاد زادت حتى يَعْلُو قلبه ذاك الرَّيْن الذي ذكر الله عز وجل في القرآن:** ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ١٤﴾[المطففين]»[١].

• وعن حذيفة رضي الله عنه قال: كنا عند عمر فقال: أيُّكم سَمِع رسول الله يذكر الفتن؟ فقال قوم: نحن سمعناه. قال: لعلَّكُم تَعنُون فتنة الرجل في أهله وجاره؟ قال: أجل، قال: تلك تُكفرها الصلاة والصيام والصدقة، ولكن أيكم سمع النبي صلى الله عليه وسلم يذكر الفتن التي تموج موج البحر؟ فقال حذيفة: فأسكت[٢] القوم، فقلت: أنا، قال: أنت، لله أبوك!

فقال حذيفة رضي الله عنه: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «**تُعرضُ[٣] الفتنُ على القلوب كالحصير عُودًا عُودًا[٤]، فأَيُّ**

(١) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٢/ ٢٩٧) والترمذي (٣٣٣٤).

(٢) فأسكت القوم: قال جمهور أهل اللغة: سكت وأسكت لغتان بمعنى: الصمت. قال الأصمعي: سكت: صمت، وأسكت: أطرق.

(٣) «تعرض الفتن» أي: تلصق بعرض القلوب.. أي: جانبها -كما يؤثر الحصير بجنْب النائم.

(٤) «عودًا عودًا»: قال النووي: هذان الحرفان مما اختُلف في ضبطه على ثلاثة أوجه: أظهرها وأشهرها «عُودًا عُودًا»، والثاني: عَوْدًا عَوْدًا، والثالث: «عَوذًا =

قلب أُشْرِبَهَا [(١)]، نُكِت فيه نُكْتة [(٢)] سوداء، وأيُّ قلب أَنكَرَها [(٣)] نُكِت فيه نُكْتَةٌ بيضاءُ، حتى تصيرَ على قلبيْن: على أبيض مثل الصَّفَا[(٤)] فلا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السماواتُ والأرضُ، والآخرُ أَسَودُ مِرْبادًا [(٥)]، كالكوز مُجِخِّيًا[(٦)]، لا يعرف معروفًا ولا يُنكِرُ مُنكرًا،

عَوْذًا»، ولم يذكر صاحب «التحرير» غير الأول. وأما القاضي عياض فذكر هذه الأوجه الثلاثة عن أئمتهم واختار الأول أيضًا.

(١) «فأيّ قلب أشربها» أي: دخلت فيه دخولاً تامًّا وألزمها وحَلَّت منه محل الشراب. ومنه قولهم: «ثوب مشوب بِحُمْرة» أي: خالطته الحمرة مخالطة لا انفكاك لها.

(٢) «نكت فيه نكتة» أي: نُقط نقطة، قال ابن دريد: كل نقطة في شيء بخلاف لونه فهو نكت.

(٣) أنكرها: ردّها.

(٤) «مثل الصفا»: قال القاضي عياض: ليست تشبيهًا بالصفا بيانًا لبياضه، لكن صفة لأخرىٰ، لشدته علىٰ عقد الإيمان وسلامته من الخل، وأن الفتن لم تُلصق به ولم تُؤثِّر فيه كالصَّفا، وهو الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء.

(٥) «مربادا»: قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «كذا هو في أصول روايتنا وأصول بلادنا، وهو منصوب علىٰ الحال». وذكر القاضي عياض خلافًا في ضبطه، وأن منهم من ضبطه كما ذكرنا، ومنهم من رواه مربئد، قال القاضي: وهذه رواية أكثر شيوخنا، وأصله أن لا يهمز، ويكون مربد مثل مسود ومحمر، وكذا ذكره أبو عبيد الهروي، وصححه بعض شيوخنا عن أبي مروان بن سراج لأنه من «اربد» إلا علىٰ لُغة من قال: «احمأر» بهمزة بعد الميم؛ لالتقاء الساكنيْن، فيُقال: اربأد ومربئد. والدال مشدَّدة علىٰ القوليْن.

(٦) «مجخِّيًا»: معناه: مائلاً. كذا قاله الهروي وغيره، وفسَّره الراوي في الكتاب بقوله: مَنْكُوسًا، وهو قريب من معنىٰ المائل، قال القاضي عياض: قال لي ابن سراج: ليس قوله: «كالكوز مجخيًا» تشبيهًا لما تقدَّم من سواده، بل هو وصف =

إِلَّا ما أُشرِب من هَوَاهُ»(١).

(٣٩) التوبة سبب لرفع البلايا:

* فالمصائبُ التي تحلُّ بالإنسان قد تكون بسبب ذنوبه، كما قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ٣٠ ﴾ [الشورى].

* وقال تعالى: ﴿ فَأَنزَلۡنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجۡزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ٥٩ ﴾ [البقرة].

* وتأتي التوبة رافعةً للبلايا، كما قال تعالى عن نبيه يونس عليه السلام: ﴿ فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣ لَلَبِثَ فِي بَطۡنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ١٤٤ ﴾ [الصافات].

(٤٠) التوبة سبب لدخول الجنة والبعد عن النار:

* قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ شَيۡـًٔا ٦٠ ﴾ [مريم].

* وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٨ ﴾ [التحريم].

• وقال رسول الله ﷺ: «طوبى لمن وجَد في صحيفته استغفارًا

آخر من أوْصافه، بأنه قُلِب ونُكِس حتىٰ لا يعلق به خير ولا حكمة، ومثَّله بالكوز المجخي، وبيَّنه بقوله: لا يعرف معروفًا ولايُنكِر منكرًا».

(١) أخرجه مسلم (ح١٤٤).

كثيرًا»[1].

* وقال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ٧ ﴾ [غافر].

(٤١) ومن عظم التوبة والاستغفار أن الله أقام صفوة خلقه من النبيين والمرسلين يستغفرون للمؤمنين قبل وجودهم:

* قال نوح عليه السلام: ﴿ رَّبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيۡتِيَ مُؤۡمِنٗا وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ ﴾ [نوح: ٢٨].

* وقال تعالى لخليله: ﴿ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ يَوۡمَ يَقُومُ ٱلۡحِسَابُ ٤١ ﴾ [إبراهيم].

* وقال لنبيه ﷺ: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ ﴾ [محمد: ١٩].

(٤٢) وأخيرًا: التوبة فرارٌ من ظلم النفس:

* فقد قسَّم الله العباد إلى تائب وظالم، وما ثَمَّ قسمٌ ثالثٌ ألبتة، فقال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمۡ يَتُبۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ١١ ﴾ [الحجرات]، ولا أظلمُ مِن العاصي لجهله بعيْب نفسه وآفات عمله وعدم توقيره لربه.

---

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٣٨١٨) عن عبد الله بن بسر، وأبو نعيم عن عائشة، وأحمد في «الزهد» عن أبي الدرداء موقوفًا. وصححه الضياء، والبوصيري، والألباني في «صحيح الجامع» (٣٩٣٠)، و«تحقيق المشكاة» (٢٣٥٦).



من علو الهمة في التوبة أن تعيَ حقائقها ومعانيها وسرائرها ولطائفها، وتُحقّق ذلك عِلْمًا وعملاً وحالاً:

ما هي التوبة؟

التوبةُ هي رجوع العبد إلى الله. والهدايةُ التامة لا تكون مع الجهل بالذنوب، ولا مع الإصرار عليها. فإن الأوَّل: جهلٌ يُنافي معرفة الهدى، والثاني: غَيٌّ ينافي قصده وإرادته. فلذلك لا تصحُّ التوبة إلَّا بعد معرفة الذنب، والاعترافِ به، والتخلُّص من سوء عواقبه أوَّلًا وآخرًا.

▫ قال الهروي عن التوبة: «هي أن تنظرَ في الذنب إلى ثلاثة أشياء:

أ- إلى انخلاعك من العصمة حين إتيانه.

ب- وفرحك عند الظَّفَر به.

جـ- وقعودك على الإصرار عن تداركه، مع تيقُّنك نظرَ الحق إليك.

أ- انخلاعك عن العصمة حين إتيانه.

أي: انخلاعه عن اعتصامه، أو عصمة الله إياه.

▫ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يحتمل أن يريد بالانخلاع عن العصمة: انخلاعه عن اعتصامه بالله؛ فإنه لو اعتصم بالله لما خرج عن هداية الطاعة.

قال الله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [آل عمران]، فلو كملت عصمته بالله لم يخذله أبدًا.

قال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُوا۟ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ ﴿٧٨﴾﴾ [الحج]، أي: متى اعتصمتم به تولاكم ونصركم على أنفسكم وعلى الشيطان. وهما العدوانِ اللذانِ لا يفارقان العبد، وعداوتُهما أضرُّ من عداوة العدو الخارجي. فالنصرُ على هذا العدو أهم، والعبدُ إليه أحوج،

وكمالُ النصرة على العدو بحسب كمال الاعتصام بالله.

وسيأتي الكلام -إن شاء الله تعالى- بعد هذا في حقيقة «الاعتصام» وأن الإيمان لا يقوم إلَّا به.

ويحتملُ أن يريد الانخلاعَ من عصمة الله لك، وأنك إنما ارتكبتَ الذنب بعد انخلاعك من توبةِ عصمته لك، فمتى عرف هذا الانخلاع وعظمَ خَطَره عنده، واشتدت عليه مفارقتُه، وعلم أن الهُلْك كل الهلك بَعْده، وهو حقيقةُ الخذلان، فما خَلَّى الله بينك وبين الذنب إلَّا بعد أن خذلك، وخلَّى بينك وبين نفسك، ولو عصمك ووفقك لما وجد الذنبُ إليك سبيلًا.

فقد أجمع العارفون بالله على أن الخُذلان: أن يَكِلكَ الله إلى نفسك، ويخلِّيَ بينك وبينها. والتوفيق: أن لا يَكِلَكَ اللهُ إلى نفسك، وله سبحانه في هذه التخلية -بينك وبين الذنب وخُذلانك حتى واقَعتَه- حكَمٌ وأسرار.

وعلى الاحتمالين فترجع «التوبة» إلى اعتصامك به وعصمته لك»[1].

ب- فرحك عند الظَّفَر بالمعصية:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «الفرحُ بالمعصية دليلٌ على شدة الرغبة فيها، والجهلُ بقدر من عصاه، والجهلُ بسوء عاقبتها وعظمِ خطرها، ففرحُه بها غطَّى عليه ذلك كله، وفرحُه بها أشدُّ ضررًا عليه من مواقعتها، والمؤمنُ لا تتمُّ له لذةٌ بمعصيةٍ أبدًا، ولا يكمُل بها فرحُه، بل لا يباشرُها إلَّا والحزنُ مخالطٌ لقلبه، ولكنَّ سُكرَ الشهوة يَحجبه عن الشعور به، ومتى خَلِيَ قلبه من هذا الحزن. واشتدت غِبطتُه وسروره، فلْيَتَّهم إيمانَه، ولْيَبْكِ على موت

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٧٩- ١٨٠).

قلبه؛ فإنه لو كان حيًّا لأحزنه ارتكابُه للذنب، وغاظه وصعُب عليه، ولا يُحِسُّ القلبُ بذلك، فحيث لم يُحِسَّ به فما لجُرح بميتٍ إيلامٌ.

وهذه النكتةُ في الذنب قلَّ مَن يهتدي إليها أو ينتبَّهُ لها، وهي موضعٌ مَخوفٌ جدًّا، مترامٍ إلى هلاك إن لم يُتدارك بثلاثة أشياء: خوفٌ من الموافاة عليه قبل التوبة. وندمٌ على ما فاته من الله بمخالفة أمره، وتشميرٌ للجد في استدراكه»[١].

□ وقال ابنُ الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَنالُ لذَّةَ المعاصي إلَّا سكرانُ الغفلة.

فأما المؤمن؛ فإنه لا يلتذُّ؛ لأنه عند التذاذه يقفُ بإزائه عَلَمُ التحريمِ وحذرُ العقوبة.

فإن قويتْ معرفتُه؛ رأى بعين علمِه قُرْبَ الناهي، فيتنغَّص عيشهُ في حال التذاذه.

فإن غَلَبَ سُكْرُ الهوى؛ كان القلبُ متنغِّصًا بهذه المراقبات، وإن كان الطبع في شهوتِهِ.

وما هي إلَّا لحظةٌ، ثم خُذْ مِن غريم نَدَم ملازمٍ، وبكاءٍ متواصل، وأسفٍ على ما كان مع طولِ الزَّمان، حتى إنَّه لو تيقَّن العفوَ؛ وقف بإزائه حَذَر العتاب.

فأُفٍّ للذنوب! ما أقبحَ آثارَها! وما أسوأَ أخبارَها! ولا كانت شهوةٌ لا تُنال إلَّا بمقدار قوة الغفلة»[٢].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٠- ١٨١).

(٢) «صيد الخاطر» (ص٢٣٥- ٢٣٦).

جـ: «وقعودك على الإصرار عن تداركه»:

▫ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الإصرار: هو الاستقرارُ على المخالفة، والعزمُ على المعاودة. وذلك ذنبٌ آخر، لعلَّه أعظمُ من الذنب الأول بكثير. وهذا من عقوبةِ الذنب: أنه يوجِبَ ذنبًا أكبرَ منه، ثم الثاني كذلك، ثم الثالث كذلك، حتى يستحكم الهلاك.

فالإصرار على المعصية معصيةٌ أخرى، والقعودُ عن تدارك الفارط من المعصية إصرارٌ ورضًا بها وطمأنينةٌ إليها، وذلك علامةُ الهلاك، وأشد من هذا كله: المجاهرةُ بالذنب، مع تيقُّنِ نظرِ الرب جَلَّ جَلَالُهُ من فوق عرشه إليه، فإن آمَن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم، وإن لم يؤمِنْ بنظره إليه واطلاعه عليه فكُفرٌ وانسلاخٌ من الإسلام بالكلية. فهو دائرٌ بين الأمرين: بين قلَّة الحياء، ومجاهرةِ نظر الله إليه، وبين الكفر والانسلاخ من الدين، فلذلك يُشترطُ في صحة التوبة تيقُّنُه أن الله كان ناظرًا -ولا يزال- إليه مطلعًا عليه، يراه جَهْرةً عند مواقعة الذنب؛ لأن التوبةَ لا تصحُّ إلَّا من مسلم، إلَّا أن يكون كافرًا بنظر الله إليه جاحدًا له، فتوبتُه دخولُه في الإسلام، وإقرارُه بصفات الرب جَلَّ جَلَالُهُ»[1].

▫ كان أحدُ العُبَّاد يبكي ويقول: «يا رب أَتُراك ترحم مَن لم تقرَّ عيناه بالمعاصي حتى علم أن لا عين تراه غيرك».

▫ قال بلالُ بن سعد: «لا تنظرْ إلى صِغَرِ الخطيئة، ولكنِ انظرْ مَن عصيتَ؟»[2].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨١).

(٢) «حلية الأولياء» (٥/ ٢٥٤).

ويحك -يا عبد السَّوء-! لمَ جعلتَ اللهَ أهونَ الناظرين إليك؟! أفكان اللهُ عَزَّوَجَلَّ أهونَ عليك من بعضَ خلقه؟!!.

□ قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «يا صاحبَ الذنب، لا تأمننَّ من سوء عاقبته. ولَـمَا يتبع الذنبَ أعظمُ من الذنب إذا عملتَه؛ قلَّةُ حيائك ممن على اليمين والشمال -وأنت على الذنب- أعظمُ من الذنب الذي عملته. وضَحِكُكَ -وأنت لا تدري ما اللهُ صانعٌ بك- أعظم من الذنب. وفرحُـك بالذنب -إذا ظفِرت به- أعظم من الذنب: وحزنُك على الذنب -إذا فاتك- أعظم من الذنب إذا ظفرت به. وخوفُك من الريح إذا حرَّكت سترَ بابك -وأنت على الذنب- أعظمُ من الذنب، ولا يضطرب فؤادُك من نظر الله إليك -أعظم من الذنب إذا عملته»[1].

شرائط التوبة: الندم، والإقلاع، والعزم على أن لا يعود إليه.. أضِف إليها الاعتذار:

□ قال الهروي: «وشرائطُ التوبة ثلاثةٌ: الندم، والإقلاع، والاعتذار».

□ قال ابن القيم معلِّقًا وشارحًا: «فحقيقةُ التوبة: هي الندمُ على ما سلف منه في الماضي، والإقلاعُ عنه في الحال. والعزمُ على ألَّا يعاودَه في المستقبل.

والثلاثةُ تجتمعُ في الوقت الذي تقعُ فيه التوبة، فإنه في ذلك الوقت يندم، ويُقلع، ويعزم.

فحينئذٍ يرجعُ إلى العبودية التي خُلق لها، وهذا الرجوعُ هو حقيقةُ التوبة.

---

(١) «الحلية» (١/ ٣٢٤).

ولما كان متوقفًا على تلك الثلاثة، جُعلت شرائطَ له.

فأما الندم: فإنه لا تتحققُ التوبة إلَّا به، إذ مَن لم يندم على القبيح، فذلك دليلٌ على رضاه به، وإصراره عليه. وفي «المسند»: «**الندم توبة**»[(١)].

□ قال عكرمة: «كلُّ حزن يَبلَى إلَّا حُزن التائب»[(٢)].

ونقف مع الندم وقفة طويلة:

﴿ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ ﴾:

□ قال ابن الجوزي: «تفكرَّتُ في نفسي يومًا تفكُّرَ مُحَقِّق، فحاسبتها قبل أن تحاسَبَ، ووزنتُها قبل أن تُوزن، فرأيتُ اللطف الربانيَّ:

فمنذ الطفولة وإلى الآن أرى لُطفًا بعد لُطفٍ، وسترًا على قبيح، وعفوًا عَمَّا يُوجب عقوبةً، وما أرى لذلك شُكْرًا إلَّا باللسانِ.

ولقد تفكَّرتُ في خطايا؛ لو عُوقبتُ ببعضها، لهلكتُ سريعًا، ولو كُشِف للناس بعضُها لاستحييتُ.. فصرتُ إذا دعوتُ؛ أقول: اللهمَّ! بحمدكَ وسَتْركَ عليَّ اغفر لي!

ثم أنا أتَقاضى القدرَ مراداتي، ولا أتقاضى نفسي بصبرٍ على مكروه ولا بشكر على نعمةٍ.

فأخذتُ أنوحُ على تقصيري في شُكْر المنعم وكوني أتلذَّذُ بإيرادِ العِلْم من غير تحقيق عمل بهِ! وقد كنتُ أرجو مقامات الكبارِ؛ فذهب العمرُ وما حصل المقصودُ!! فوجدتُ أبا الوفاءِ بن عَقيل قد نحا نحوَ ما نُحْتُ، فأعجبتني نياحتُهُ، فكتبتها ها هنا..

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٢).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠١).

قال لنفسه: يا رعناءُ! تُقَوِّمين الألفاظ ليُقال: مناظر!! وثمرةُ هذا أن يُقال: يا مناظرُ! كما يقالَ للمصارع الفاره[1].

ضيَّعتِ أعَزَّ الأشياء وأنفسَها عند العقلاء -وهي أيام العُمرُ-، حتى شاع لك بين من يموتُ غدًا اسمُ مناظر، ثم يُنْسَى الذاكرُ والمذكورُ إذا درستِ القلوب! هذا إن تأخَّرَ الأَمرُ إلى موتِكِ، بل ربَّما نشأ شاب أفره منك، فموَّهوا له، وصار الاسم له!! والعقلاء عن الله تشاغلوا بما إذا انْطَووا نَشَرَهم[2]، وهو العملُ بالعِلْمِ، والنظر الخالصُ لنفوسهم.

□ أُفٍّ لنفسي! وقد سطرتُ عدَّة مجلَّدات في فنون العلومِ وما عبَقَ[3] بها فضيلة، إنْ نُوظِرَتْ؛ شَمَخَتْ، وإنْ نوصِحَتْ؛ تَعَجْرَفَتْ، وإنْ لاحتِ الدنيا؛ طارت إليها طيران الرَّخَم[4]، وسقطتْ عليها سقوط الغُرَاب على الجِيَفِ! فليْتَها أخذتْ أَخْذَ المضطرِّ مِن الميتة! توفَّر في المخالطة عيوبًا تُبلِي ولا تحتسِمُ نظَرَ الحقِّ إليها!! وإن انكسرَ لها غَرَضٌ تضجَّرَتْ؛ فإن أُمِدَّت بالنِّعم؛ اشتغلت عن المنعِم!!

أُفٍّ والله مني اليوم على وجه الأرضِ وغدًا تحتها!

والله؛ إنَّ نتَنَ جسدي بعد ثلاثٍ تحت التراب أقلُّ من نتنِ خلائقي وأنا بين الأصحاب!

والله؛ إنني قد بهرَني حِلْمُ هذا الكريم عني، كيف يسترني وأنا أتهتَّك ويجمعني وأنا أتشتَّتُ؟ وغدًا يُقال: مات الحبرُ العالِمُ الصالحُ، ولوْ عرفوني

(١) الفارع: الجيد البارع.
(٢) يعني: إذا ماتوا أحيا ذِكرهم.
(٣) يعني: ما علق بنفسه فضيلة.
(٤) الرَّخَم: نوعٌ من أنواع الطيور الجارحة.

حقَّ معرفتي بنفسي ما دَفَنوني.

والله؛ لأُنادِينَّ على نفسي نداء المكشِّفين معائب الأعداءِ، ولأنُوحَنَّ نَوْح الثَّاكِلينَ للأبناء؛ إذْ لا نائحَ ينوحُ عليَّ لهذه المصائب المكتومةِ والخلال المُغطَّاة التي قد سَتَرَها مَن خَبَرَها وغَطَّاها مَن عَلِمَها والله؛ ما أجِدُ لنفسي خَلَّةً أستحسنُ أن أقول متوسِّلًا بها: اللهُمَّ! اغفرْ لي كذا بكذا.

والله؛ ما التفتُ قطُّ إلَّا وجدتُ منه سبحانه برًّا يكفيني ووقاية تحميني مع تسلُّطِ الأعداء، ولا عَرَضتْ حاجةٌ فمددْتُ يدي إلَّا قضاها.

هذا فِعلُه معي وهو ربٌّ غنيٌّ عنِّي، وهذا فعلي وأنا عبدٌ فقير إليه!!

ولا عُذْر لي فأقولُ: ما دريتُ! أو: سهوتُ! والله؛ لقد خلقني خلْقًا صحيحًا سليمًا، ونوَّر قلبي بالفِطْنَةِ، حتى إنَّ الغائبات والمكنونات تنكَشِفُ لفهمي.

فوا حسرتاه على عُمُرٍ انقضَى فيما لا يطابقُ الرِّضَى! واحِرْماني لمقامات الرجال الفطناء! يا حسْرَتا على ما فَرَّطْتُ في جَنب الله وشماتةِ العدوِّ بي! واخيبةَ من أحسن الظنَّ بي إذا شهدت الجوارحُ عليّ! واخذلاني عند إقامة الحجَّة!

سَحِر والله مني الشيطان وأنا الفَطِن!!

اللهم! توبةً خالصةً من هذه الأقذار، ونهضةً صادقةً لتصفية ما بقي من الأكدار! وقد جئتُكَ بعد الخمسينَ، وأنا من خَلَق المتاع، وأبى العلمُ إلَّا أن يأخذ بيدي إلى معدِنِ الكرم، وليس لي وسيلةٌ إلَّا التأسُّفُ والندم؛ فوالله؛ ما عصيتُك جاهلًا بمقدار نِعَمِك، ولا ناسيًا لما أسلفتَ مِن كَرَمِكَ؛

فاغفرْ لي سالفَ فعلي»[١].

أنا العبد:

أنـا العَبْـدُ الـذي كَـسَبَ الـذُّنُوبَا ... وصَـدَّتْه الأمَـاني أن يَتُوبَـا

أنـا العَبْـدُ الـذي أضْـحَى حَزِينًـا ... عـلى زلَّاتِـهِ قَلِقًـا كَئِيبـا

أنـا العَبْـدُ الـذي سُـطِرَتْ عَلَيْـهِ ... صَـحَائِفُ لَمْ يَخَـفْ فيهـا الرَّقِيبـا

أنـا العبـدُ المُسِيءُ عَـصَيتُ سِرًّا ... فـمَا لِي الآن لا أُبْـدِي النَّحيبـا

أنـا العَبْـدُ المُفَـرِّطُ ضَـاعَ عُمْـرِي ... فَلَـمْ أَرْعَ الـشَّبيبةَ والمـشِيبَا

أنـا العبْـدُ الغَريـقُ بلُـجِّ بَحْـرٍ ... أصِـيحُ لـرُبَّما ألْقَـى مُجِيبـا

أنـا العَبْـدُ الـسَّقِيمُ مـن الخطايـا ... وقـد أَقْبَلْـتُ ألـتمسُ الطَّبِيبَـا

أنـا العَبْـدُ المُخَلَّـفُ عَـنْ أُنَـاسٍ ... حَـوَوْا مِـنْ كُـلِّ معـروفٍ نَـصيبَا

أنا العبـدُ الـشَّرِيدُ ظلمـتُ نَفْـسِي ... وقـد وافيـتُ بَـابَكُمُ مُنِيبـا

أنـا العبـد الفقـيرُ مَـدَدْتُ كَفِّـي ... إلـيكُمْ فـادفعوا عَنِّـي الخُطُوبَـا

أنـا الغـدَّارُ كـمْ عاهـدتُ عَهْـدًا ... وكنـتُ عـلَى الوفـاءِ بـه كَـذُوبَا

أنـا المقطـوعُ فـارحمني وَصِـلْني ... ويَـسِّرْ منـكَ لي فرجًـا قريبَـا

أنـا المُـضْطرُّ أرجـو منـك عَفْـوًا ... ومـن يَرْجُـو رضـاك فلـن يَخيبـا

فيـا أسَـفَى عـلى عُمْـرٍ تَقَـضَّى ... ولم أكْـسِبْ بـه إلَّا الـذُّنُوبَا

وأحـذَرُ أن يُعَـاجِلَني مـماتٌ ... يُحَـيِّرُ هـوْلُ مـصْرَعِه اللبيبـا

ويا حُزْنَـاهُ مَـن حَـشْرِي ونَـشْرِي ... بيـومِ يجعـلُ الولـدانَ شِـيبَا

---

(١) «صيد الخاطر» (ص٧٣٦- ٧٣٩).

تَفَطَّـرَتِ السَّماءُ بـه ومَـارَتْ ... وأصْـبَحتِ الجبـالُ بـه كَثِيبَـا
إذا مـا قُمـتُ حَيْرانًـا ظمِيئًـا ... حـسيرَ الطَّـرْفِ عُرْيَانًـا سَـلِيبا
ويـا خَجَـلاهُ مـن قُبْحِ اكتسابي ... إذا مَـا أبـدتِ الـصُّحُفُ العُيُوبَـا
وذِلَّـةِ موقـفٍ وحـسابِ عَـدْلٍ ... أكـونُ بـه عـلى نفـسي حـسيبا
ويـا حَـذَرَاه مـن نـارٍ تَلَظَّـى ... إذَا زَفَـرَتْ وأَقْلَقَـتِ القُلُوبـا
تَكَـادُ إذا بَـدَتْ تَنْـشِقُّ غَيْظًـا ... عـلى مَـنْ كـان ظَلَّامًـا مُريبـا
فَيَـا مَـن مَـدَّ في كَـسْبِ الخَطَايَـا ... خُطَـاهُ أمـا آنَ الأوانُ لأنْ تَتوبـا
أَلَا فـاقلعْ وَتُـبْ واجْهَـدْ فإنَّـا ... رَأيْنـا كُـلَّ مُجتهِـدٍ مُـصِيبَا [1]

□ «لا بُدَّ والله من قلق وحُرْقة: إما في زواية التعبُّد.. وإمَّا في هاوية الطرد.. إمَّا إن تحرق قلبك بنار الندم على التقصير والشوق إلى لقاء الحبيب، وإلَّا فنار جهنم أشدُّ حرًّا.. القلق.. القلق يا من سُلِبَ قلبه.. البكاء.. البكاء.. يا من عظم ذنبه».

كيف لا يندم العاصي على ذنبه؟

كيف لا يندم العاصي المسيء على ذنبه، وهو يعلم أن الذنب تتبعه خصالٌ مذمومة:

أولها: أنه أسخط اللهَ وهو قادرٌ عليه.

والثانية: أنه فرَّح إبليس -لعنه الله-.

والثالثة: أنه تباعَدَ من الجنة.

والرابع: أنه تقرَّب من النار.

---

(١) لعلي زين العابدين.

والخامسة: أنه قد آذى أحبَّ الأشياء إليه، وهي نفسه.

والسادسة: أنه نجَّس قلبه -وقد كان طاهرًا-، فالذنب نجاسة معنويّة.

والسابعة: أنه آذى الحفَظَة.

والثامنة: أنه أحزن النبيَّ ﷺ في قبره.

والتاسعة: أنه أشهَد على نفسه السماواتِ والأرضَ -وجميع المخلوقات- بالعِصيان.

والعاشرة: أنه خان العهدَ والأمانة مع الله رب العالمين.

الإقلاع عن الذنب:

فتستحيلُ التوبة مع مباشرة الذنب.

الاعتذار:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما الاعتذار: ففيه إشكالٌ. فإن من الناس من يقول: مِن تمام التوبة تركُ الاعتذار، فإن الاعتذارَ محاجَّةٌ عن الجناية، وتركُ الاعتذار اعترافٌ بها، ولا تصحُّ التوبة إلَّا بعد الاعتراف، وفي ذلك يقول بعضُ الشعراء لرئيسه، وقد عتب عليه في شيءٍ:

وما قابلتُ عَتْبك باعتذار ... ولكني أقول كما تقولُ

وأطْرُقُ باب عفوك بانكسار ... ويحكم بيننا الخُلُقُ الجميلُ

فلما سمع الرئيسُ مقالتَه قام وركب إليه من فوره. وأزال عَتْبه عليه.

فتمامُ الاعتراف: ترك الاعتذار، بأن يكون في قلبه ولسانه: اللهم لا براءةَ لي من ذنبٍ فأعتذر، ولا قوةَ لي فأنتصر، ولكني مذنبٌ مستغفر. اللهم لا عذرَ لي. وإنما هو محضُ حقك، ومحضُ جنايتي. فإن عفوتَ وإلَّا فالحق لك.

والذي ظهر لي من كلام صاحب «المنازل»: أنه أراد بالاعتذار إظهارَ الضعفِ والمسكنة، وغلبةَ العدو، وقوةَ سلطان النفس، وأنه لم يكن مني ما كان عن استهانةٍ بحقك، ولا جهلًا به، ولا إنكارًا لاطلاعك، ولا استهانةً بوعيدك، وإنما كان من غلبةِ الهوى، وضعفِ القوة عن مقاومة مرض الشهوة، وطمعًا في مغفرتك، واتكالًا على عفوك، وحُسنَ ظنٍّ بك، ورجاءً لكرمك، وطمعًا في سَعة حلمك ورحمتك. وغَرَّني بك الغَرور، والنفسُ الأمارةُ بالسوء، وسِترُك المرخِيُّ عليَّ، وأعانني جهلي، ولا سبيل إلى الاعتصام لي إلَّا بك، ولا معونة على طاعتك إلَّا بتوفيقك.

ونحو هذا من الكلام المتضمِّنِ للاستعطاف والتذلل والافتقار، والاعترافِ بالعجز والإقرار بالعبودية، فهذا من تمام التوبة. وإنما يسلكه الأكياسُ المتملِّقون لربهم عَزَّوَجَلَّ، والله يحب من عبده أن يتملق له.

• وفي الحديث: «**تملَّقوا لله**»، وفي «الصحيح»: «**لا أحدُ أحبَّ إليه العذر من الله**». وإن كان معنى ذلك الإعذار. كما قال في آخر الحديث: «**مِن أجل ذلك أرسَلَ الرسلَ مبشِّرين ومُنذِرين**».

* وقال تعالى: ﴿فَٱلْمُلْقِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٥ عُذْرًا أَوْ نُذْرًا ۝٦﴾ [المراسلات]، فإنه من تمام عدلِه وإحسانه: أن أعذر إلى عباده، وأن لا يؤاخذَ ظالمهم إلَّا بعد كمال الإعذار وإقامةِ الحجة عليه. فهو أيضًا يحبُّ من عبده أن يعتذر إليه، ويتنصَّل إليه من ذنبه.

• وفي الحديث: «**مَن اعتذر إلى الله، قَبِل اللهُ عُذرَه**». فهذا هو الاعتذار المحمود النافع.

□ قال رجلٌ لذي النُّون رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو يَعِظُ الناس: «يا شيخ! ما الذي أصْنَع؟ كلما وقفتُ على باب من أبواب المولى صرفني عنه قاطِعُ المِحَنِ

والبلوى! قال له: يا أخي، كُن على باب مولاك كالصَّبِيِّ الصَّغير مع أمِّه، كُلَّمَا ضرَبتْهُ أمُّه ترامَى عليها، وكُلَّما طردَتْهُ، تقرّبَ إليها، فلا يزال كذلك حتى تضُمَّه إليها»[1].

ارفعْ طرْفَك إلى السماء وقلْ: إلهي وسيدي ومولاي، قد آن الرحيل إليك، وأزِف القدومُ عليك، ولا عُذْرَ لي بين يديك، غير أنَّك الغفور وأنا العاصي، وأنت الرَّحيم وأنا الجاني، وأنت السَّيد وأنا العبد، ارحم خضوعي وذُلِّي بين يديك..

إلهي إن كنتُ الغريقَ وعاصِيًا ... فعفوُك يا ذا الجود والسَّعة الرَّحْبُ

بشدّة فقري باضطراري بحاجتي ... إليك إلهي حين يشتدُّ بيَ الكرْبُ

بما بي من ضَعفٍ وعَجْزٍ وفاقة ... بما ضَمَّنَتْ مِن وُسْعِ رحمتِك الكُتْبُ

اعف عني فأنت الكريم، وارحمني فأنا المخطئ الجهول..

أَمْولاي إنِّيَ عبدٌ ضعيفٌ ... أتيْتُكَ أرْغَب فيما لديْكَ

أتيتُكَ أشكو مُصابَ الذُّنوب ... وهل يُشتكى الضُّرُّ إلَّا إليكَ

فَمُنَّ بعفوكَ يا سيدي ... فليس اعتماديَ إلَّا عليك

نعم: «إذا تذلَّل العبد لمولاه، واعتذر إليه ممَّا جناه، قرَّبه وأدناه، وجعل جنَّة الخلد مأواه».

الاعتذار بالقدَر مخاصمةٌ لله:

◻ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأما الاعتذارُ بالقدَر: فهو مخاصمةٌ لله، واحتجاجٌ من العبد على الرب، وحملٌ لذنبه على الأقدار، وهذا فعلُ

---

(١) «بحر الدموع» لابن الجوزي (ص٥٠).

خصماءِ الله، كما قال بعضُ شيوخهم في قوله تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ ﴾ [آل عمران: ١٤]. قال: «أتدرون ما المراد بهذه الآية؟ قالوا: ما المراد بها؟ قال: إقامة أعذار الخليقة».

وكذب هذا الجاهلُ بالله وكلامه. وإنما المراد بها: التزهيدُ في هذا الفاني الذاهب، والترغيبُ في الباقي الدائم، والإزراءُ بمن آثر هذا المزيَّنَ واتبعه، بمنزلة الصبي الذي يزين له ما يعلب به. فيهش إليه ويتحرك له، مع أنه لم يذكر فاعل التزيين، فلم يقل: «زَيَّنَا للناس» والله تعالى يضيف تزيين الدنيا والمعاصي إلى الشياطين، كما قال تعالى: ﴿ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [الأنعام].

*وقال: ﴿ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٣٧].

• وفي الحديث: «**بُعثتُ هاديًا وداعيًا، وليس إليَّ من الهداية شيء، وبُعث إبليسُ مُغْويًا ومزيِّنًا، وليس إليه من الضلالة شيء**»[1]، ولا يناقضُ هذا قولُه تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فإن إضافةَ التزيين إليه قضاءً وقدرًا، وإلى الشيطان تسببًا، مع أن تزيينَه تعالى عقوبةٌ لهم على ركونهم إلى ما زَيَّنَه الشيطانُ لهم. فمِن عقوبة السيئة: السيئة بعدها، ومن ثواب الحسنة: الحسنة بعدها.

والمقصودُ: أن الاحتجاجَ بالقدر منافٍ للتوبة. وليس هو من الاعتذار في شيء.

---

(١) موضوع: عزاه السيوطي في «الجامع الصغير» (٦٠٨٨) للعقيلي وابن عدي، وقال العلامة الألباني: «موضوع». انظر: «ضعيف الجامع» (٢٣٣٨).

وفي بعض الآثار «إن العبد إذا أذنب. فقال: يا رب، هذا قضاؤك. وأنت قدَّرتَ عليَّ. وأنت حكمتَ عليَّ، وأنت كتبتَ عليَّ. يقول الله ﷻ: وأنت عملتَ، وأنت كسبتَ، وأنت أردتَ واجتهدت، وأنا أُعاقبك عليه.

وإذا قال: يا رب، أنا ظلمتُ، وأنا أخطأتُ، وأنا اعتديتُ، وأنا فعلتُ. يقولُ الله ﷻ: وأنا قدَّرتُ عليك وقضيتُ وكتبت، وأنا أغفرُ لك.

وإذا عمل حسنة، فقال: يا ربِّ أنا عملتُها، وأنا تصدقت وأنا صليت وأنا أطعمت. يقول الله ﷻ: وأنا أعنتك وأنا وفقتك، وإذا قال: يا رب أنت أعنتني ووفقتني، وأنت مَنَنْت عليَّ. يقول الله: وأنت عملتها، وأنت أرادتها، وأنت كسبتها».

□ فالاعتذارُ اعتذاران: اعتذارٌ يُنافي الاعتراف، فذلك منافٍ للتوبة، واعتذارٌ يقرِّرُ الاعتراف، فذلك من تام التوبة»[1].

ومن علو الهمّة في التوبة أن تعلم حقائقَها وهي:

تعظيم الجناية، واتهام التوبة، والغيرة لله والغضب له:

الحقائق: ما يتحقّق به الشيء، وتتبيَّن به صِحَّتُه وثبوته، فلكل حقٍّ حقيقة.

تعظيم الجناية:

□ قال ابن القيم: «فأمَّا تعظيمُ الجناية: فإنه إذا استهان بها لم يَندمْ عليها، وعلى قدْر تعظيمها يكون ندمُه على ارتكابها، فإنَّ من استهان بإضاعة فَلْس -مثلًا-، لم يندم على إضاعته، فإذا علم أنه دينارٌ اشتد ندمه، وعظُمت إضاعته عنده».

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٣- ١٨٤).

وتعظيم الجناية يصدر عن ثلاثة أشياء:

أ- تعظيم الأمر.

ب- تعظيم الآمِر.

جـ- والتصديق بالجزاء»[١].

□ أما تعظيم الآمر عَزَّ وَجَلَّ: فالله عَزَّ وَجَلَّ أعزُّ وأعظم من أن يُعصى.

* قال تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾﴾ [نوح].

□ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تعرفون حقَّ عظمته».

□ قال الحسن: «ما لكم لا تعرفون لله حقًّا ولا تشكرونه؟».

□ وقال مجاهد: «لا تُبالون عظمة ربكم».

□ وقال ابن زيد: «لا ترون لله طاعة».

□ وقال ابن القيم: «أي: لا تعاملونه معاملة من توقِّرونه؟ والتوقير: العظمة».

«وهذه الأقوالُ ترجع إلى معنًى واحدٍ، وهو أنَّهم لو عظَّموا الله وعرفوا حقَّ عظمته: وَحَّدُوه وأطاعوه وشكروه، فطاعته سبحانه واجتناب معاصيه والحياء منه: بحسب وقاره في القلب»[٢].

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «من أعظم الظلم والجهل أن تطلبَ التعظيمَ والتوقير من الناس، وقلبك خالٍ من تعظيم الله وتوقيره؛ فإنك توقِّر المخلوق وتجلُّه أن يراك في حالٍ لا توقِّر الله أن يراك عليها، قال تعالى: ﴿مَّا

---

(١) المصدر السابق (١/ ١٨٥).

(٢) انظر «الفوائد» لابن قيم الجوزية، «فوائد الفوائد» (ص٩٤).

لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ ﴾»[(١)].

من علامات توقير الله وتعظيمه:

(١) ألا يُقرَنَ اسمُه باسم ما يُسْتَحى من ذكره:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال بعضُ السلف: لِيَعْظُم وقارُ الله في قلب أحدكم أن يذكُرَهُ عند ما يُسْتَحى من ذكره فيقرن اسمَه به؛ كما تقول: قَبَّح اللهُ الكلب والخنزير والنَّتْنَ.. ونحو ذلك! فهذا من وقار الله»[(٢)].

(٢-٥) أن لا تَعدل به شيئًا من خلقه: في اللفظ، ولا في الحب والتعظيم، ولا في الطاعة، ولا في الخوف والرجاء:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن وقاره أن لا تعدلَ به شيئًا من خلقه: لا في اللفظ؛ بحيث تقول: والله وَحياتِكَ، ما لي إلَّا اللهُ وأنت، وما شاء الله وشئت.. ولا في الحب والتعظيم والإجلال.

ولا في الطاعة، فتطيعُ المخلوق في أمره ونهيه كما تطيع الله، بل أعظمَ؛ كما عليه أكثرُ الظلمة والفجرة.

ولا في الخوف والرجاء؛ ويجعَلُهُ أهون الناظرين إليه..»[(٣)].

(٦) ولا يستهينُ بحقّه:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يستهينُ بحقِّه ويقول: هو مبنيٌّ على المسامحة»[(٤)].

---

(١) «الفوائد» لابن قيم الجوزية (ص٤١١)- طبع دار ابن خزيمة.

(٢) «الفوائد» (ص٢١٤).

(٣) نفس المصدر.

(٤) نفس المصدر.

(٧-٨) ولا يجعله على الفضلة، ويقدم حق المخلوق عليه:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يجعله على الفضلة.. ويقدِّم حق المخلوق عليه»(١).

ويُعطى لله الفضلة من الوقت والهَمِّ والبذل، والمال، والذكر.

* قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١١].

(٩) ولا يكون اللهُ ورسولُه في حَدٍّ وناحيةٍ، والناس في ناحيةٍ وحدٍّ أعلى منهما:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يكون الله ورسوله في حدٍّ وناحيةٍ، والناسُ في ناحيةٍ وحَدٍّ، فيكون في الحدِّ والشِّقِّ الذي فيه الناس دُونَ الحدِّ والشِّقِّ الذي فيه اللهُ ورسولُهُ»(٢).

* قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ ﴿٦٣﴾﴾ [التوبة].

(١٠) وأن يُعطي الله في مخاطبته قلبه ولُبَّه وبدنه وروحه:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في توقير الله أيضًا: «ولا يُعطي المخلوقَ في مخاطبته قلبَه ولُبَّه، ويُعطِي الله في خدمتهِ بدَنَه ولسانَه دون قلبه وروحه»(٣).

(١١) ولا يجعل مراد نفسه مقدَّمًا على مُرادِ ربه:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولا يجعلْ مرادَ نفسه مقدَّمًا على مُرادِ ربه..

---

(١) نفس المصدر.

(٢) «الفوائد» (ص٤١٢ - ٤١٣).

(٣) نفس المصدر.

فهذا كلُّه من عدم وقار الله في القلب. ومن كان كذلك؛ فإنَّ الله لا يُلْقِي له في قلوب الناس وقارًا ولا هيبةً، بل يُسقِطُ وقارَه وهيبتَه مِن قلوبهم، وإن وقَّرُوه مخافة شرِّه؛ فذاك وقارُ بُغْضٍ لا وقارُ حُبٍّ وتعظيم»[١].

(١٢) الحياءُ من اطلاع الله على سِرِّه، فيرى فيه ما يكره:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومن وَقارِ الله: أن يستحي من اطِّلاعه على سرِّه وضميره فيرى فيه ما يكره»[٢].

* قال تعالى: ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ ﴾ [النساء: ١٠٨].

(١٣) أن يكون حياؤه من الله أعظم من أكابر الناس:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ومِن وقارِه أن يستحي منه في الخَلْوة أعظمَ مما يستحي من أكابر الناس»[٣].

□ وقال: «والمقصودُ أنَّ من لا يوقِّرُ اللهَ وكلامَه وما آتاه من العلم والحكمة؛ فكيف يطلبُ من الناس توقيرَه وتعظيمَه؟!»[٤].

* قال تعالى: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [الزمر].

* قال تعالى: ﴿ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ ﴾ [الحج].

---

(١) نفس المصدر.
(٢) نفس المصدر.
(٣) نفس المصدر.
(٤) نفس المصدر.

تعظيم الرب بالتعرف على صفات الألوهية، وصفات الربوبية:

□ قال ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «القرآن كلام الله، وقد تجلَّى فيه لعباده بصفاته، فتارةً يتجلَّى في جلباب الهيبة والعظمة والجلال، فتخضعُ الأعناق، وتنكسرُ النفوس، وتخشعُ الأصوات، ويذوبُ الكِبْرُ كما يذوبُ المِلحُ في الماء. وتارةً يتجلَّى في صفات الجمال والكمال، وهو كمالُ الأسماء وجمال الصفات، وجمالُ الأفعال الدالُّ على كمال الذات، فيستفيد حُبُّه من قلب العبد قوة الحب كلها».

□ وإذا تجلَّى بصفات العدل والانتقام، والغضب والسُّخْط والعقوبة، انقمعت النفس الأمَّارة، وبطلت -أو ضعُفت- قواها من الشهوة والغضب، واللهو واللعب، والحرص على المحرّمات، وانقبضت أَعِنَّة رُعونتِها، فأَحضَرت المطِيَّةُ حظَّها من الخوف والخشية والحذر.

□ وإذا تجلَّى بصفات الأمر والنهي، والعهد والوصيَّة، وإرسالِ الرسل وإنزالِ الكتب وشَرْع الشرائع؛ انبعثت منها قوَّةُ الامتثال والتنفيذ لأوامره، والتبليغِ لها، والتَّواصي بها، وذكرها وتذكُّرِها، والتصديق بالخبر، والامتثال للطلب، والاجتناب للنهي.

□ وجُمَّاع ذلك: أنه سبحانه يتعرَّفُ إلى العبد بصفات إلهيَّته تارة، وبصفات ربوبيَّته تارة، فيُوجب له شهودُ صفاتِ الإلهية المحبةَ الخاصة والشوقَ إلى لقائه، والأنسَ والفرح به، والسرورَ بخدمته، والمنافسةَ في قُربه، والتودُّد إليه بطاعته، واللَّهَج بذكره، والفرارَ من الخلق إليه، ويصير هو وحده همَّه دونَ سواه.

ويوجبُ له شهودُ صفات الربوبية: التوكل عليه، والافتقار إليه، والاستعانة به، والذل والخضوع والانكسار له.

وكمالُ ذلك: أن يشهد ربوبيَّته في قضائه وقدره، ونعمته في بلائه، وعطائِهِ في منعه، وبرَّه ولُطفَه وإحسانه ورحمتَه في قيوميَّته، وعَدْله في انتقامه، وجودَه وكرمه في مغفرته وستره وتجاوزه، ويشهد حكمته ونعمته في أمره ونهيه، وعزَّه في رضاه وغضبه، وحِلْمَه في إمهاله، وكرمَه في إقباله، وغِنَاه في إعراضه»[١].

حديث شدّاد بن أوس: سيد الاستغفار لماذا؟

• عن شدَّاد بن أوس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «**سيدُ الاستغفار أن تقول: اللهمَّ أنت ربي، لا إله إلَّا أنت، خلقتَني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمتك عليَّ، وأبوءُ لك بذنبي، فاغفرْ لي، فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلَّا أنت. مَن قالها من النهار مُوقنًا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل، وهو موقنٌ بها، فمات قبل أن يُصبِحَ، فهو من أهل الجنَّة**»[٢].

□ لماذا كان هذا الحديثُ العظيمُ سيدَ الاستغفار -كما قال ذلك النبي ﷺ-؟ قالوا: إن العبد في طريقه إلى الله عز وجل يسيرُ بين مطالعةِ المنَّة ومشاهدةِ عيب النفس، مَن أنت؟ ومن ربك؟ بمعرفتك لهذا تصلُ إلى كمال التوبة «ومن عرف نفسه عرف ربه» كما قال يحيى بن معاذ الرازي.

□ قال ابنُ قيم الجوزيَّة: «لا يَنتفعُ بنعمة الإيمان والعلم؛ إلَّا من عَرَفَ

---

(١) «الفوائد» لابن القيم (ص١٧٣- ١٧٦).

(٢) رواه أحمد (٤/ ١٢٢) والبخاري مع «الفتح» (١١/ ٩٧)، والنسائي (٥٥٢٢)، وأبو داود (٥٠٧٠) والحاكم في «المستدرك» (٢/ ٤٩٦).

نفسه، ووقف بها عند قدرْها، ولم يتجاوزْه إلى ما ليس له، ولم يتعدَّ طَوْرَه، ولم يَقُل: هذا لي، وتيقَّن أنه لله ومن الله وبالله؛ فهو المانُّ به ابتداءً وإدامةً بلا سبب من العبد ولا استحقاق منه، فتُذِلُّه نِعَمُ الله عليه وتكسِرُه كسرةَ من لا يرى لنفسه ولا فيها خيرًا ألبتةَ، وأن الخيرَ الذي وصل إليه؛ فهو لله وبه، ومنه، فتُحدِثُ له النِّعَم ذُلًّا وانكسارًا عجيبًا لا يُعبَّر عنه؛ فكلما جَدَّدَ له نعمة؛ ازداد له ذُلًّا وانكسارًا وخشوعًا ومحبةً وخوفًا ورجاءً.

وهذا نتيجةُ عِلميْن شريفيْن:

أ- عِلْمه بربِّه وكماله وبِرِّه وغناه وجودِه وإحسانه ورحمته، وأنَّ الخير كلَّه في يديْه، وهو ملكه؛ يؤتي منه مَن يشاءُ ويمنع منه من يشاء، وله الحمدُ على هذا. وهذا أكملُ حمد وأتمُّهُ.

ب- وعلمه بنفسه، ووقوفه على حدِّها وقَدْرها ونقصها وظلمِها وجهلها، وأنه لا خير فيها ألبتةَ، ولا لها ولا بها ولا منها، وأنها ليس من ذَاتها إلَّا العدمُ؛ فكذلك من صفاتها وكمالها ليس لها إلَّا العدمُ الذي لا شيء أحقرُ منه ولا أنقصُ؛ فما فيها من الخير تابعٌ لوجودها الذي ليس إليها ولا بها.

فإذا صار هذا العِلْمان صِبْغةً لها لا صبغةً على لسانها؛ عَلِمَتْ حينئذ أن الحمد كله لله، والأمر كله له، والخيرَ كله في يديه، وأنه هو المستحِقُّ للحمد والثناء والمدح دونَها، وأنَّها هي أوْلى بالذَّم والعيْب واللوم.

ومَن فاته التحقُّق بهذيْن العِلْمَيْن؛ تلوَّنتْ به أقواله وأعماله وأحواله، وتخبَّطت عليه، ولم يهتد إلى الصراط المستقيم الموصِّل له إلى الله. فإيصال العبد بتحقيق هاتيْن المعرفتيْن عِلْمًا وحالًا، وانقطاعه بفواتِهما.

وهذا معنى قولهم: مَن عَرَف نفسه؛ عَرَف ربَّهُ؛ فإنه من عَرَف نفسه

بالجهل والظلم والعيب والنَّقائص والحاجة والفقر والذُّلِّ والمَسْكنة والعدم؛ عَرَف ربَّه بضد ذلك، فوقف بنفسه عند قدرِها، ولم يتعدَّ بها طوْرها، وأثنى على ربِّه ببعض ما هو أهلُه، وانصرفت قوة حُبِّه وخشيته ورجائه وإنابته وتوكله إليه وحدَه، وكان أحبَّ شيءٍ إليه وأخوف شيء عندَه وأرجاه له، وهذا هو حقيقة العبوديَّة. والله المستعان.

ويُحكَى أنَّ بعض الحُكماءِ كتب على باب بيته: أنه لن ينتفعَ بِحِكمتنا إلَّا من عَرَف نفسَه ووقف بها عند قدْرها؛ فمن كان كذلك؛ فليدخُل، وإلَّا؛ فليرجع حتى يكون بهذه الصِّفة»[1].

يا خليفةَ الأموات، يا ابن التراب، ومأكول التراب غدًا، قصِّر واعرف قدْر نفسك:

أنت عبدٌ، ليس لك غيرُ باب سيِّدِك وفضله وإحسانِه، وإن تخلَّى عنك هَلَكْتَ ولم يعطف عليك أحدٌ، بل تضيعُ أعظمَ ضيْعةٍ.

لا غنى بك عنه عَزَّ وَجَلَّ طرفةَ عين، وليس لك مَن تُعوذُ به وتلوذُ به غير سيدك الذي أنت عبده. تصرُّفُك على محض العبوديَّة، لا بحكم الاختيار لنفسك، فالتزم آدابَ العبودية من الذل والخضوع، وامتثالِ أمر سيدك، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه.

□ أنت ومالُك ونفسُك مِلكٌ لسيدك، ناصيتُك بيده، وقلبك بين إصبعين من أصابعه، في قبضةِ سيدك، أضعفُ من مملوكٍ صغير حقير، ناصيتُه بيد سلطانٍ قاهرٍ مالكٍ له تحت تصرُّفه وقهره؛ بل الأمرُ فوق ذلك.

---

(١) «الفوائد» (ص٣١٣ ـ ٣١٥).

بعيدًا عن طريق مولاك ما قدرُك؟

□ جدُّك البعيد ترابٌ ذليل، وأبوك القريب ماءٌ مهين، وأنت خرجت من مجرى البول مرَّتيْن، أوَّلُك نطفةٌ مَذِرة، وآخرُك جيفةٌ قذرة، وأنت بين هذا وذاك تحملُ العذرة، أنت كنيفٌ ودورةُ مياه متحرِّكة، تحمل أمعاؤك الغليظةُ ما تحمل الأنتان والحشوش ودورات المياه.. أنت أحقرُ من حشرة في مُلْك الله، لا تساوي نحلة، فالنحلةُ أعلم بما يخرج من بطنها، وأنت أعلمُ بما يخرج من بطنك، لو كانت للذنوب رائحةٌ، ما استطاع أحدٌ أن يجالسك من نتن رائحتك.

أنفٌ يسيلُ وأُذْنٌ كُلُّها سهكٌ ... والعين مرمضةٌ والثغرُ ملعوبُ

يا ابن الترابِ ومأكول التراب غدًا ... قصِّر فإنك مأكولٌ ومشروبُ

ومصيرك إلى القبر والدود والتراب مهما كان حسنك ومنظرك..

إني سألتُ الترابَ ما فعلتْ ... بعدُ وجوهٌ فيك مُنعَفِرةْ

فقال لي صيرَّتُ ريحَهُمُ ... يُؤذِيك بعد مناظر عَطِرةْ

وأكلتُ أجسادًا منعَّمةً ... كان النعيم يهزُّها نَضَرَةْ

لم تبقَ غيرُ جماجمٍ عَرِيتْ ... بيضٍ تلوحُ وأعظم نخرةْ

بئس العبد عبد طغى وعتى ونسى المبدأ والمنتهى، بئس العبدُ عبدٌ طغى وعتى ونسى الجبار الأعلى، بئس العبدُ عبدٌ طغى وعتى ونسى المقابر والبِلَى.

* بلغتَ أيها العبدُ العاصي الغايةَ في الجهل والظلم، وأنت كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۝٧٢﴾ [الأحزاب]، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر]. بلاؤك مِن نفسك ومُصابك منها، وأنت أوْلى بكل ذمٍّ وظُلْم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝٦﴾ [العاديات].



□ قال ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وقتادة: «كفورٌ جحودٌ لنعم الله».

□ قال أبو عبيدة: «هو قليل الخير، و«الأرض الكنود»: التي لا نبْت فيها. وقيل: التي لا تُنبت شيئًا من المنافع».

لو علمتَ -أيها الظالمُ الجاهل- أنَّك أنت القاعدُ على طريق مصالحك تقطعُها عن الوصول إليك، فأنت الحَجَرُ في طريق الماء الذي به حياتك، وأنت السَّكْرُ الذي قد سدَّ مجرى الماء إلى بستان قلبك، وتستغيثُ مع ذلك: «العطشَ العطشَ»، فأنت حجابُ قلبك عن سرِّ غيبه، وأنت الغيْمُ المانعُ لإشراق شمس الهدى على القلب، فما عليك أضرُّ منك، ولا لك أعداءُ أبلغُ في نكايتك وعداوتك منك.

ما تبلغ الأعداءُ من جاهلٍ ... ما يبلغُ الجاهلُ من نفسِهِ

□ فَتَبًّا له ظالمًا في صورة مظلوم، وشاكيًا والجنايةُ منه، قد جدَّ في الإعراض وهو ينادي: «طردوني وأبعدوني»، ولَّى ظهره البابَ، بل أغلقه على نفسه وأضاع مفاتيحه وكسرها، ويقول:

دعاني، وسدَّ الباب دوني، فهل إلى ... دخولي سبيلٌ، بيِّنوا لي قصتي

يأخذُ الشفيقُ بحُجْزته عن النار. وهو يُجاذبُه ثوبَه ويغلبُه ويقتحمُها، ويستغيث: «ما حيلتي؟ وقد قَدَّموني إلى الحُفيرة وقذفوني فيه!».

والله كم صاح به الناصح: الحذَر الحذر، إياك إياك، وكم أمسك بثوبه، وكم أراهَ مصارع المقتحِمين وهو يأبى إلَّا الاقتحام:

وكم سُقْتُ في آثاركم من نصيحةٍ ... وقد يستفيدُ البِغْضةَ المتنصِّحُ

يا ويلَه ظهيرًا للشيطان على ربه، خصمًا لله مع نفسه، جَبْرِيُّ المعاصي، قَدَرِيُّ الطاعات، عاجز الرأي، مِضياعٌ لفرصته، قاعدٌ عن مصالحه،

معاتبٌ لأقدار ربه. يحتجُّ على ربه بما لا يقبلُه من عبده وامرأته وأَمَته، إذا احتجُّوا به عليه في التهاون في بعض أمره. فلو أمر أحدَهم بأمر ففرَّط فيه، أو نهاه عن شيءٍ فارتكبه، وقال: القدَرُ ساقني إلى ذلك، لَـمَا قَبِلَ منه هذه الحُجَّة، ولبادَرَ إلى عقوبته.

فإن كان القدَرُ حُجةً لك -أيها الظالم الجاهل في ترك حق ربك-، فهلَّا كان حجةً لعبدك وأمتك في ترك بعض حقِّك؟ بل إذا أساء إليك مسيءٌ، وجنى عليك جانٍ، واحتج بالقدر: لاشتدَّ غضبُك عليه، وتضاعف جُرمُه عندك، ورأيت حُجَّتَه داحضة، ثم تحتجُّ على ربك به، وتراه عذرًا لنفسك؟! فمن أولى بالظلم والجهل ممن هذه حاله؟

هذا مع تواتر إحسان الله إليك على مَدَى الأنفاس: أزاح عِلَلَك، ومَكنَّك من التزود إلى جَنَّته، وبعث إليك الدليل، وأعطاك مؤنة السفر وما تتزود به، وما تحارب به قُطَّاعَ الطريق عليك، فأعطاك السمعَ والبصر والفؤاد، وعَرَّفك الخير والشر، والنافعَ والضار، وأرسل إليك رسوله. وأنزل إليك كتابه، ويسَّرَه للذكر والفهم والعمل. وأعانك بمددٍ من جُنده الكرام، يثبِّتُونك ويحرُسُونك. ويحاربون عدوَّك ويطردونه عنك. ويريدون منك أن لا تميل إليه ولا تصالحه، وهم يكفونك مؤنته. وأنت تأبى إلَّا مظاهرتَه عليهم، وموالاته دونهم. بل تُظاهره وتواليه دون وَليِّك الحق الذي هو أولَى بك.

* قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾ ﴾ [الكهف].

□ طردَ إبليسَ عن سمائه، وأخرجه من جنته، وأبعده من قربه، إذ لم



يَسْجد لك، وأنت في صُلْب أبيك آدم، لكرامتك عليه، فعاداه وأبعده، ثم واليتَ عدوه، ومِلْتَ إليه وصالحته. وتتظلَّمُ مع ذلك، وتشتكي الطرد والإبعاد، وتقول:

عوَّدُوني الوصال، والوصلُ عَذْب ورمَـوني بالـصدِّ والـصدُّ صـعبُ

نعم. وكيف لا يَطْرُد من هذه معاملته؟ وكيف لا يُبعِدُ عنه من كان هذا وصفه؟ وكيف يجعل مِن خاصته وأهل قُربه مَنْ حاله معه هكذا؟ قد أفسد ما بينه وبين الله وكَدَّره.

أمره الله بشكره، لا لحاجته إليه، ولكن لينالَ به المزيدَ من فضله، فجعل كُفرَ نِعَمِه، والاستعانةَ بها على مساخطه: من أكبر أسباب صرفها عنه.

* وأمره بذكره ليذكره بإحسانه، فجعل نسيانَه سببًا لنسيان الله له: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾ [الحشر: ١٩]، ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة: ٦٧] أمره بسؤاله ليعطيَه، فلم يسأله. بل أعطاه أجلَّ العطايا بلا سؤال، فلم يقبل، يشكو مَنْ يرحمه إلى مَن لا يرحمه. ويتظلمُ ممن لا يظلمُه، ويَدَعُ من يُعاديه ويظلمه. إن أنعم عليه بالصحَّة والعافية والمال والجاه، استعان بنِعمه على معاصيه، وإن سَلَبه ذلك ظَلَّ متسخطًا على ربه وهو شاكيه. لا يَصلُح له على عافية، ولا على ابتلاء، العافية تُلقيه إلى مساخطه، والبلاء يدفعه إلى كفرانه وجحود نعمته، وشكايته إلى خلقه.

□ دعاه إلى بابه فما وقف عليه ولا طَرَقه، ثم فتحه له فما عرَّج عليه ولا وَلَجه، أرسل إليه رسولَه يدعوه إلى دار كرامته، فعصى الرسول، وقال: «لا أَبيعُ ناجزًا بغائب، ونَقْدًا بنَسيئة، ولا أتركُ ما أراه لشيء سمعتُ به»، ويقول:

خُذْ ما رأيتَ ودَعْ شيئًا سمعتَ به   في طَلْعة الشمس ما يُغنيكَ عن

فإن وافق حَظُّه طاعةَ الرسول أطاعه لنيل حظِّه، لا لرضى مُرسِله، لم يزل يتمقت إليه بمعاصيه، حتى أعرض عنه، وأغلق الباب في وجهه.

□ ومع هذا فلم يؤيِّسْه من رحمته، بل قال: «متى جئتَني قبلتك، إن أتيتَني ليلًا قبلتك، وإن أتيتَني نهارًا قبلتك، وإن تقربتَ مني شبرًا تقربت منك ذراعًا، وإن تقربتَ مني ذراعًا تقربتُ منك باعًا، وإن مشيتَ إليَّ هرولتُ إليك، ولو لقيتَني بقُراب الأرض خطايا، ثم لقيتَني لا تشرك بي شيئًا، أتيتُك بقُرابها مغفرة، ولو بلغتْ ذنوبُك عنانَ السماء، ثم استغفرتني غفرتُ لك، ومَنْ أعظم مني جودًا وكرمًا؟!.

عبادي يبارزونني بالعظائم، وأنا أكلؤُهم على فُرُشهم، إني والجن والإنس في نبإٍ عظيم: أخلقُ ويُعبد غيري، وأرزُق ويُشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرُّهم إليَّ صاعد، أتحبَّبُ إليهم بنعمي، وأنا الغنيُّ عنهم، ويتبغَّضون إليَّ بالمعاصي، وهم أفقر شيءٍ إليَّ.

من أقبل إليَّ تلقَّيتُه من بعيد، ومَن أعرض عني ناديتُه من قريب، ومَن ترك لأجلي أعطيتُه فوق المزيد، ومَن أراد رضاى أردتُ ما يريد، ومن تصرَّف بحولي وقوَّتي ألنتُ له الحديد.

أهلُ ذكري أهل مجالستي، وأهلُ شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهلُ معصيتي لا أُقَنِّطهم من رحمتي، إن تابوا إليَّ فأنا حبيبهم، فإني أحبُّ التوابين وأحبُّ المتطهرين، وإن لم يتوبوا إليَّ فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب، لأطهرَهم من المعايب.

مَن آثرني على سواى آثرتُه على سواه، الحسنةُ عندي بعشر أمثالها إلى سَبْعِمئة ضِعف، إلى أضعافٍ كثيرة، والسيئةُ عندي بواحدة، فإن ندم عليها

واستغفرني غفرتُها له.

أشكر اليسيرَ من العمل، وأغفرُ الكثير من الزلل، رحمتي سبقت غضبي، وحِلمي سبق مؤاخذتي، وعفوي سبق عقوبتي، أنا أرحمُ بعبادي من الوالدة بولدها «**لَلَّـهُ أَشَدُّ فرحًا بتوبة عبده من رَجلٍ أَضَلَّ راحلته بأرضٍ مَهْلَكةٍ دَوِّية عليها طعامُه وشرابه، فطلبها حتى إذا أيس من حصولها، نام في أصل شجرةٍ ينتظر الموت، فاستيقظ فإذا هي على رأسه، قد تعلَّق خِطامُها بالشجرة، فاللهُ أفرحُ بتوبة عبده من هذا براحلته**».

وهذه فرحةُ إحسانٍ وبرٍّ ولطف، لا فرحةُ محتاجٍ إلى توبة عبده، منتفعٍ بها. وكذلك موالاتُه لعبده إحسانًا إليه، ومحبةً له وبرًّا به، لا يتكثَّر به من قِلَّة، ولا يتعزَّزُ به من ذِلَّة، ولا ينتصر به غَلَبة، ولا يَعُدُّه لنائبة، ولا يستعين به في أمر ﴿وَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ شَرِيكٌ فِى ٱلْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ وَلِىٌّ مِّنَ ٱلذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾﴾ [الإسراء]، فنفى أن يكون له وليٌّ من الذل، والله ولى الذين آمنوا، وهم أولياؤه.

فهذا شأنُ الرب وشأنُ العبد، وهم يُقيمون أعذارَ أنفسهم، ويَحمِلون ذنوبهم على أقداره.

استأثر اللهُ بالمحامد والمجـ ... ـد وولَّى الملامَةَ الرجلَا

□ وما أحسن قول القائل:

تطوى المراحلَ عن حبيبك دائبًا ... وتَظَلُّ تبكيه بدمعٍ ساجم

كذبَتْكَ نَفْسُكَ لستَ من أحبابه ... تشكو البعاد، وأنت عين

□ كيف تعصى مَن أنت به؟! وبقاؤك منه، وتدبيرك بيده، ورجوعُك

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٢- ١٩٦).

إليه، وكلُّ مستحسَن في الوجود هو حسَّنَهُ وزيَّنهُ وجَمَّلَهُ وعطفَ النفوس إليه، لقد أعطاكِ -أيتها النفس- ما لم تأملي، وبلَّغك ما لم تطلبي، وستر عليكِ من القبيح ما لو فاح لضجَّت المشام..

تصدُّ وتنأى عن حبيبك دائمًا فأين عن الأحباب ويحك

«من أعجب الأشياء: أن تعرفَه ثم لا تحبَّه، وأن تسمع داعِيَهُ ثم تتأخَّرُ عن الإجابة، وأن تعرف قدْرَ الرِّبحِ في معاملته ثم تعاملُ غيرَه، وأن تعرفَ قدْر غضبه، ثم تتعرَّض له، وأن تذوقَ ألم الوحشة في معصيته ثم لا تطلبُ الأنسَ بطاعته، وأن تذوق عَصْرَة القلب عند الخوض في غير حديثه والحديث عنه، ثم لا تشتاقُ إلى انشراح الصدر بذكره ومناجاته، وأن تذوقَ العذاب عند تعلُّق القلب بغيره، ولا تهربُ منه إلى نعيم الإقبال عليه والإنابة إليه!! وأعجب من هذا: علمُك أنك لا بُدَّ لك منه، وأنك أحوج شيءٍ إليه وأنت معرضٌ عنه، وفيما يُبعدك عنه راغب!!»[1].

□ فـ «طوبى لمن أنصف ربَّهُ، فأقرَّ له بالجهل في علمه، والآفات في عمله، والعيوب في نفسه، والتفريط في حقه، والظلم في معاملته. فإن آخذه بذنوبه رأى عدْلَه، وإن لم يؤاخذْه بها رأى فضله.

ونكتة المسألة وسِرُّها أنه لا يرى ربَّه إلَّا مُحْسِنًا، ولا يرى نفسَه إلَّا مسيئًا أو مفرِّطًا أو مقصِّرًا، فيرى كلَّ ما يَسُرُّه من فضل ربه عليه وإحسانه إليه، وكُلَّ ما يسؤوه من ذنوبه وعدل الله فيه»[2].

□ كيف فلاحُك بين إيمانٍ ناقصٍ، وأمل زائدٍ، ومرضٍ لا طبيب له

---

(١) «الفوائد» (ص١١٩).

(٢) المصدر السابق (ص٩٥).



ولا عائد، وهوى مستيقظ، وعقل راقد، ساهيًا في غَمْرَتِكَ، عَمِهًا في سكرتِكَ، سابحًا في لُجَّة جهلك، مُستوحشًا من ربك، مستأنِسًا بخلْقِهِ، ذكرُ الناس فاكهَتُكَ وقوتُك، وذِكر الله حَبْسُكَ وموتُكَ، لله منك جزء يسير من ظاهرك، وقلبك ويقينك لغيره[1].

جـ- التصديق بالجزاء والوعيد:

كيف يلتذُّ العاصي بعيش وبمعصيةٍ وهو يعلمُ أن القبر موعده، وأن القيامة مشهده، وأن الصراط أمامه، كيف يهنأُ وهو يعلمُ أن المقامع لرأسه تُهيَّأ، وأن الزقوم طعامه، وأن النَّفَس الواحد من الرجل في النار لو أصاب مئةَ ألف -أو يزيدون-، كانوا في مسجدٍ لاحترق بمن فيه.

يا هذا، يا مغرورًا بالأماني، لُعِن إبليس وأُهبط من منزلِ العزِّ بترك سجدةٍ واحدة أُمِر بها، وأَخرجَ آدمَ من الجنة بلقمة تناولها، وحجَب القاتل عنها بعد أن رآها عِيانًا بملء كفٍّ من دَم، وأمر بقتل الزاني أشنع القتلات بإيلاج قدر الأُنْمُلةِ فيما لا يَحِلُّ، وأمَرَ بإيساع الظَّهْر سياطًا بكلمة قذف أو بقطرةٍ من مُسْكِر، وأبان عضوًا من أعضائك[2] بثلاثة دراهم؛ فلا تأمَنْه أن يحبسك في النار بمعصية واحدة ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس].

ودخلتِ امرأة النار في هِرَّةٍ. وإنَّ الرجل ليتكلَّمُ بالكلمة لا يُلْقِي لها بالًا يَهْوِي بها في النار أبعدَ ما بين المشرق والمغرِب.. العُمْرُ بآخره، والعمل بخاتمته.

□ من أحدثَ قبل السلام؛ بَطَل ما مضى من صلاته، ومن أَفْطَرَ قبل

---

(١) انظر «الفوائد» (ص ١٦٠).

(٢) بِقَطْعِهِ.

غروب الشمس؛ ذهب صيامه ضائِعًا، ومن أساء في آخر عُمُرِهِ؛ لَقِيَ ربَّهُ بذلك الوجه»[(١)].

□ لقد خالف الهدهدُ سليمانَ في طريق الصحبة ثلاث مرَّات فقال: ﴿لَأَاْذْبَحَنَّهُۥٓ﴾، فيا من لم يوفِّ لله بأي حقٍّ، أما تخافُ أن يُقالَ لك في بعض غدراتك: اذهب فلا غفرتُ لك!.

تَصِلُ الذنوبَ إلى الذُّنوبَ وترتجي ... دَرَجَ الجنانِ ونيْلَ فوز العابِدِ
ونسيتَ أن الله أخرج آدمَ ... منها إلى الدنيا بذنب واحِدِ

* من يقدرُ على عذاب الله وأخذه ﴿إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود].
* من يقدرُ على غضب الله ووثاقه ﴿لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُۥٓ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر].

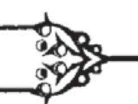
* مَن يصبر على النار ضيِّقةِ الأرجاء، مُظلِمةِ المسالك، مُبهَمَةِ المهالك، يخلدُ فيها الأسير، ويُوقدُ فيها السعير، دارُ الذلِّ والهوان، والعذاب والخذلان، دارُ الشهيق والزفرات، والأنينِ والعبرات، حرُّها شديد، وقعرُها بعيد، ومقامعُها الحديد، وشراب أهلها الصديد ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ ۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾﴾ [إبراهيم].

رحم الله أقوامًا كان ذكر النار لا يدعهم ينامون..

أطار الخوفُ نومَهم فقاموا ... وأهلُ الأمن في الدنيا هجوعُ

---

(١) «الفوائد» (ص١٥٧ ـ ١٥٩).



ومن علوِّ الهمة في التوبة: اتهام التوبة والخوف من أن تكون توبة عِلَّة:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن اتهام التوبة: «فلأنها حقٌّ عليه. لا يتيقَّن أنَّه أَدَّى هذا الحقَّ على الوجه المطلوب منه الذي ينبغي له أن يؤديَه عليه، فيخاف أنه ما وفَّاها حقَّها، وأنها لم تُقبَل منه، وأنه لم يبذل جهده في صحتها، وأنها توبة عِلَّة وهو لا يشعُر بها»[1].

توبة العِلَّة:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «١- كتوبة أرباب الحوائج والإفلاس، والمحافظين على حاجاتهم ومنازلهم بين الناس.

٢- أو أنه تاب محافظةً على حاله، فتاب للحال، لا خوفًا من ذي الجلال.

٣- أو أنه تاب طلبًا للراحة من الكَدِّ في تحصيل الذنب.

٤- أو اتِّقاء ما يخافه على عِرضه وماله ومنصبه.

٥- أو لضعف داعي المعصية في قلبه، وخمود نار شهوته.

٦- أو لمنافاةِ المعصية لما يطلبه من العلم والرزق، ونحو ذلك من العلل التي تقدحُ في كون التوبة خوفًا من الله، وتعظيمًا له ولحرماته، وإجلالًا له، وخشيةً من سقوط المنزلة عنده، وعن البُعد والطَّرْد عنه، والحجاب عن رؤية وجهه في الدار الآخرة.

فهذه التوبةُ لون، وتوبةُ أصحاب العلل لون.

□ ومن اتهام التوبة أيضًا: ضعفُ العزيمة، والتفاتُ القلب إلى الذنب

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٥).

الفَيْنة بعد الفَيْنة، وتذكُّر حلاوة مواقعته، فربما تنفَّس، وربما هاج هائجه.

□ ومن اتهام التوبة: طمأنيتُه ووثوقُه من نفسه بأنه قد تاب، حتى كأنه أُعْطِي منشورًا بالأمان. فهذا من علامات التُّهمة(١).

□ ومن علاماتها: «جمودُ العين، واستمرارُ الغفلة، وأن لا يستحدث بعد التوبة أعمالًا صالحة لم تكن له قبل الخطيئة»(٢).

علامات التوبة الصحيحة:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التوبةُ المقبولة الصحيحة لها علامات:

١- منها: أن يكون بعد التوبة خيرًا مما كان قبلها.

٢- ومنها: أنْ لا يزالَ الخوفُ مصاحبًا له لا يأمن مكر الله طرفةَ عين، فخوفه مستمرٌّ إلى أن يسمعَ قول الرسل لقبض رُوحه: ﴿أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [فصلت] فهناك يزول الخوف.

٣- ومنها: انخلاعُ قلبه، وتقطُّعُه ندمًا وخوفًا. وهذا على قدْر عِظَم الجناية وصغرها، وهذا تأويلُ ابن عيينة لقوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ [التوبة: ١١٠] . قال: «تقطعها بالتوبة»، ولا ريب أن الخوفَ الشديد من العقوبة العظيمة يوجبُ انصداع القلب وانخلاعَه، وهذا هو تقطُّعُه، وهذا حقيقةُ التوبة؛ لأنه يتقطعُ قلبُه حسرةً على ما فَرَط منه، وخوفًا من سوء عاقبته، فمن لم يتقطعْ قلبه في

(١) فالمؤمن أسير الحق لا يزول عنه خوفه ولا يسكن اضطرابه حتىٰ يُخلِّف جسر جهنم وراء ظهره.

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٥).

الدنيا على ما فرَّط حسرةً وخوفًا، تقطَّع في الآخرة إذا حُقَّت الحقائق، وعاين ثوابَ المطيعين، وعقابَ العاصين، فلابد من تقطُّع القلب -إما في الدنيا وإما في الآخرة-.

٤- ومن موجَبات التوبة الصحيحة أيضًا: كسرةٌ خاصةٌ تحصلُ للقلب لا يشبهُها شيء. ولا تكون لغير المذنب، لا تحصلُ بجوعٍ، ولا رياضة، ولا حبٍّ مجرد، وإنما هي أمرٌ وراءَ هذا كلِّه، تكسُّرُ القلبِ بينَ يدي الرب كسرةً تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقتْه بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا، كحال عبدٍ جانٍ آبقٍ من سيده، فأُخِذ فأُحضر بين يديه، ولم يجد من يُنجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًّا ولا عنه غَناءً، ولا منه مهربًا، وعَلِم أن حياتَه وسعادتَه وفلاحَه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطةَ سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبِّه لسيده، وشدةِ حاجته إليه، وعلمِه بضعفه وعجزِه وقوةِ سيِّده، وذلِّه وعزِّ سيده.

فيجتمع مِن هذه الأحوال كسرةٌ وذِلَّةٌ وخُضوع، ما أنفعَها للعبد، وما أجدى عائدتَها عليه! وما أعظمَ جَبْرَه بها، وما أقربَه بها من سيده! فليس شيءٌ أحبَّ إلى سيده من هذه الكَسرة، والخضوعِ والتذلل، والإخبات، والانطراح بين يديه، والاستسلام له.

□فلله ما أحلى قولَه في هذه الحال: «أسألُك بعزك وذلي إلَّا رحمتني، أسألك بقوتِك وضعفي، وبغِناك عني وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبةُ الخاطئة بين يديك، عبيدُك سواي كثير، وليس لي سيدٌ سواك، لا ملجأَ ولا منجَى منك إلَّا إليك، أسألك مسألةَ المسكين، وأبتهلُ إليك ابتهالَ الخاضع الذليل، وأدعوك دعاءَ الخائف الضرير، سؤالَ مَن خضعت لك رقبتُه، ورَغِم لك أنفُه، وفاضت لك عيناه، وذَلَّ لك قلبه».

يا من أَلُوذ به فيما أُؤمِّله ... ومن أعوذ به مما أُحاذره

لا يَجْبُرُ الناسُ عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة. فمن لم يَجِدْ ذلك في قلبه، فليتَّهِمْ توبته، ولْيرجع إلى تصحيحها، فما أصعبَ التوبةَ الصحيحةَ بالحقيقة، وما أسهلَها باللسان والدعوى! وما عالَج الصادقُ شيئًا أشقَّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله»[1].

□ المحبُّون التائبون كاتبوا الله بدموعهم، وهم ينتظرون ردّ الجواب..

صحائفُنا إشارتنا ... وأكثرُ رُسلِنا الحُرَقُ

لأن الكُتْبَ قد تُقرا ... بغير الدمع لا نثقُ

ارحم من لا راحمَ له سواك، ولا ربَّ له غيرُك.. مسكينك وفقيرك وسائلك ومؤملك ومرجِّيك.

ومن علو الهمَّة في التوبة: تركُ العجب، وعدمُ الصَّولة بالطاعات:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأكثرُ الناس من المتنزِّهين عن الكبائر الحسيَّة والقاذورات: في كبائر مثلِها أو أعظمَ منها أو دونها، ولا يخطُرُ بقلوبهم أنها ذنوبٌ ليتوبوا منها، فعندهم -من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم، وصولةِ طاعاتهم، ومِنَّتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، اقتضاءً لا يخفى على أحدٍ غيرهم، وتوابع ذلك- ما هو أبغضُ إلى الله، وأبعدُ لهم عن بابه من كبائر أولئك، فإنْ تدارَكَ اللهُ أحدَهم بقاذورةٍ أو كبيرة يوقعُه فيها، ليكسرَ بها نفسَه، ويُعرفه

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٦- ١٨٧).

قدْرَه، ويُذلَّه بها، ويُخرِجَ بها صَوْلةَ الطاعة من قلبه، فهي رحمةٌ في حقه، كما أنه إذا تدارَكَ أصحابَ الكبائر بتوبةٍ نصوحٍ، وإقبالٍ بقلوبهم إليه، فهو رحمةٌ في حقهم، وإلَّا فكلاهما على خطر»[(١)].

عُذر الناس في إساءتهم إليك وجنايتهم عليك:

الناظرُ في ذنوب البشر -كأنه عبدٌ مثلُهم يُخطِئ كخطئهم- يَقبل أعذارهم، ويتجاوز عن جنايتهم، فاقبل: «أعذارَهم في إساءتهم إليك، وجنايتهم عليك، والنظر في ذلك إلى الأقدار، وأن أفعالَهم بمنزلة حركاتِ الأشجار، فتعذرُهم بالقدَر في حقك، لا في حقِّ ربك، فهذا حقٌّ، وهو من شأنِ سادات العارفين، وخواصِّ أولياء الله الكُمَّل، يفنَى أحدُهم عن حقه، ويستوفي حقَّ ربِّه، ينظرُ في التفريط في حقه، وفي الجنايةِ عليه إلى القدَر، وينظرُ في حق الله إلى الأمر. فيطلبُ لهم العذرَ في حقه، ويمحو عنهم العذرَ، ويطلبُه في حق الله.

□ وهذه كانت حالَ نبينا ﷺ، كما قالت عائشة رضي الله عنها: «ما انتقم رسولُ الله ﷺ لنفسه قط، ولا نِيلَ منه شيءٍ فانتقم لنفسه، إلَّا أن تُنْتَهَكَ محارمُ الله، فإذا انتُهكت محارمُ الله لم يَقُمْ لغضبه شيء، حتى ينتقم لله».

□ وقال عائشةُ رضي الله عنها أيضًا: «ما ضَرب رسولُ الله ﷺ بيده خادمًا، ولا دابةً، ولا شيئًا قط، إلَّا أن يجاهدَ في سبيل الله».

• وقال أنس رضي الله عنه: «خدمتُ النبيَّ ﷺ عشرَ سنين، فما قال لي لشيءٍ صنعتُه: «لمَ صنعتَه؟» ولا لشيءٍ لم أصنعه: «لمَ لَمْ تصنعه؟»، وكان إذا عاتبني بعضُ أهله يقول: «**دعوه. فلو قُضي شيءٌ لكان**».

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٨٧).

فانظر إلى نظره إلى القدَر عند حقه، وقيامِه بالأمر، وقطعِ يد المرأة عند حق الله. ولم يقُل هناك: القدر حكم عليَّ»(١).

ومن علو الهمة في التوبة ومن حقائقها:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الغيْرة لله، والغضبَ له من حقائق التوبة، فتعطيلُ عُذرِ الخليقة في مخالفةِ الأمر والنهي، وشدةُ الغضب هو من علامات تعظيم الحرمة، وذلك بأن يكون من حقائق التوبة أولى من عذر مخالفة الأمر والنهي»(٢).

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ -مفرِّقًا بين عُذر الخليقة في حقه، وقيامه بالأمر في حق الله-: «فانظر إلى نظره إلى القدَر عند حق نفسه، وقيامِه بالأمر، وقَطْعِ يد المرأة عند حق الله، ولم يقل هناك: القدرُ حكَم عليها.

وكذلك عزْمُه على تحريق المتخلِّفين عن الصلاة معه في الجماعة، ولم يقل: «لو قُضي لهم الصلاة لكانت».

وكذلك رَجْمه المرأة والرجل لما زنَيا، ولم يحتجَّ في ذلك لهما بالقدر.

وكذلك فعله في العُرَنِيِّين الذين قتلوا راعيه، واستاقوا الذَّود، وكفَروا بعد إسلامهم، ولم يقُل: «قُدِّر عليهم»، بل أمر بهم، فقُطعت أيديهم وأرجلُهم من خِلاف، وسُمِرت أعينُهم، وتُركوا في الحَرَّة يَسْتَسْقون فلا يُسقون، حتى ماتوا عطشًا، إلى غير ذلك مما يطول بسطه.

وكان رسولُ ﷺ أعرفَ بالله وبحقِّه من أن يحتجَّ بالقدَر على ترك أمره. ويقبلُ الاحتجاجَ به من أحد، ومع هذا فعَذَر أنسًا بالقدَر في حقه،

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٦).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ١٩٧).

وقال: «لو قُضي شيء لكان»، فصلوات الله وسلامه عليه»[١].

ومن علو الهمَّة في التوبة: عِلمُك وعملك بأسرارها:

□ قال شيخ الإسلام الهروي: «وسرائرُ حقيقة التوبة ثلاثةُ أشياء: تمييز التَّقِيَّة مِن العِزَّة، ونسيانُ الجناية، والتوبةُ من التوبة؛ لأن التائب داخل في «الجميع» من قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ [النور]، فأمر التائب بالتوبة»[٢].

تمييز التقية من العِزَّة من علو الهمة:

«تمييزُ التقية من العزة: أن يكون المقصودُ من التوبة تقوى الله، وهو خوفُه وخشيته، والقيامُ بأمره، واجتنابُ نهيه، فيعملُ بطاعةِ الله على نور من الله، يرجو ثواب الله، ويتركُ معصيةَ الله على نورٍ من الله، يخافُ عقاب الله، لا يريدُ بذلك عزَّ الطاعة؛ فإن للطاعة وللتوبة عزًّا ظاهرًا وباطنًا، فلا يكونُ مقصودُه العزة، وإن علم أنها تحصلُ له بالطاعة والتوبة، فمَن تاب لأجل العزة فتوبتُه مدخولة.

وفي بعض الآثار: «أوحى اللهُ تعالى إلى نبيٍّ من الأنبياء: قلْ لفلان الزاهد: أما زهدُك في الدنيا: فقد تَعَجَّلتَ به الراحة. وأما انقطاعُك إليَّ: فقد اكتسبت به العزَّة، ولكن ما عمِلتَ فيما لي عليك؟ قال: يا رب، وما لك عليَّ بعد هذا؟ قال: هل واليتَ فيَّ وليًّا، أو عاديتَ فيَّ عدوًّا؟».

يعني أن الراحةَ والعزَّ حظُّك، وقد نِلتهما بالزهد والعبادة، ولكن أين القيامُ بحقي، وهو الموالاة والمعاداة فيَّ؟

---

(١) المصدر السابق (ص١/ ١٩٦- ١٩٧).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢٠١).

فالشأنُ في التفريق في الأوامر بين حظِّك وحقِّ ربك علمًا وحالًا.

وكثيرٌ من الصادقين قد يلتبسُ عليهم حالُ نفوسهم في ذلك، ولا يميِّزُه إلَّا أولو البصائر منهم، وهم في الصادقين كالصادقين في الناس»[1].

ومن علوِّ الهمة: وَعْي التائب بالمسائل المتعلِّقة بالتوبة وفيها تفصيل، ومنها:

أ- نسيانُ الجناية:

□ **قال عكرمة:** «كل حُزن يبلَى إلَّا حُزن التائب»[2].

□ **قال ابن القيم** رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأما نسيانُ الجناية: فهذا موضعُ تفصيل، فقد اختَلف فيه أرباب الطريق.

فمنهم: مَن رأى الاشتغالَ عن ذِكر الذنب والإعراض عنه صفحًا. فصفاءُ الوقت مع الله تعالى أولى بالتائب وأنفع له. ولهذا قيل: «ذِكرُ الجفا في وقت الصفا جفا».

ومنهم: مَن رأى أن الأولى ألَّا ينسى ذنبه، بل لا يزالُ جاعلًا له نُصب عينيه يلاحظُه كل وقت، فيُحْدِثُ له ذلك انكسارًا وذلًّا وخضوعًا، أنفعَ له من جمعيته وصفاءِ وقته.

قالوا: ولهذا نقشَ داودُ الخطيئة في كَفِّه، وكان ينظر إليها ويبكي.

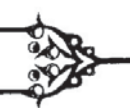
قالوا: ومتى تُهْتَ عن الطريق فارجع إلى ذنبك تجد الطريق.

ومعنى ذلك: أنك إذا رجعتَ إلى ذنبك انكسرتَ وذَلَلت، وأطرقتَ بين يدي الله عَزَّ وَجَلَّ، خاشعًا ذليلًا خائفًا، وهذه طريق العبودية.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠١).

(٢) «حلية الأولياء» (٨/ ١٠١).



والصوابُ: التفصيل في هذه المسألة. وهو أن يقال: إذا أحسَّ العبدُ من نفسه حالَ الصفاء غَيْمًا من الدعوى، ورقيقةً من العُجب ونسيانِ المنَّة، وخَطَفَتْه نفسه عن حقيقة فقره ونقصه، فذِكْرُ الذنب أنفعُ له، وإن كان في حال مشاهدته مِنَّة الله عليه، وكمالِ افتقاره إليه، وفَنائه به، وعدمِ استغنائه عنه في ذرةٍ من ذراته، وقد خالط قلبَه حالُ المحبة، والفرح بالله، والأنس به، والشوقُ إلى لقائه، وشهودُ سَعَةِ رحمته وحلمه وعفوه، وقد أشرقتْ على قلبه أنوارُ الأسماء والصفات، فنسيانُ الجناية والإعراضُ عن الذنب: أولى به وأنفع؛ فإنه متى رجع إلى ذِكر الجناية توارى عنه ذلك. ونزل من عُلْوٍ إلى أسفل، ومِن حالٍ إلى حال، بينهما من التفاوت أبعدُ مما بين السماء والأرض. وهذا من حسدِ الشيطان له، أراد أن يحطَّه عن مقامه، وسَيْرِ قلبه في ميادين المعرفة والمحبة والشوق: إلى وحشة الإساءة، وحصر الجناية.

والأول يكون شهودُه لجنايته مِنَّةً من الله منَّ بها عليه، ليؤمِّنه بها من مقت الدعوى، وحجابِ الكبر الخفي الذي لا يشعرُ به، فهذا لونٌ وهذا لون.

وهذا المحلُّ فيه أمرٌ وراءَ العبارة، وبالله التوفيق، وهو المستعان»[1].

ب- التوبة من التوبة (استغفارنا يحتاج إلى استغفار):

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «وأما التوبةُ من التوبة: فهي من المجمَلات التي يُرادُ بها حقٌّ وباطل، ويكونُ مرادُ المتكلم بها حقًّا، فيطلقُه من غير تمييز.

فإن التوبةَ من أعظم الحسنات، والتوبةُ من الحسنات من أعظم السيئات وأقبحِ الجنايات، بل هي كفر، إن أُخذت على ظاهرها، ولا فرق بين التوبة من التوبة، والتوبةِ من الإسلام والإيمان، فهل يسوغُ أن يقال

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٢- ٢٠٣).

بالتوبة من الإيمان؟.

ولكنَّ مرادَهم: أن يتوبَ من رؤية التوبة، فإنها إنما حَصَلت له بمنةِ الله ومشيئته، ولو خُلِّي ونفسه لم تسمحْ بها ألبتة، فإذا رآها وشهِد صدورها منه ووقوعها به. وغفل عن مِنَّة الله عليه: تاب من هذه الرؤية والغفلة، ولكنَّ هذه الرؤيةَ والغفلةَ ليست هي التوبة، ولا جزءً منها، ولا شرطًا لها، بل هي جنايةٌ أخرى عَرضت له بعد التوبة، فيتوبُ من هذه الجناية، كما تاب من الجناية الأولى. فما تاب إلَّا من ذنب، أولًا وآخرًا. فكيف يقال: يتوب من التوبة؟.

هذا كلامٌ غيرُ معقول. ولا هو صحيحٌ في نفسه. بل قد يكونُ في التوبة علَّةٌ ونقصٌ وآفةٌ تمنع كمالَها، وقد يشعرُ صاحبُها بذلك، وقد لا يشعرُ به، فيتوبُ من نقصان التوبة، وعدمِ توفيتها حقَّها.

وهذا أيضًا ليس من التوبة، وإنما هو توبةٌ من عدم التوبة، فإن القَدْر الموجودَ منها طاعةٌ لا يُتابُ منها، والقدْرُ المفقود: هو الذي يحتاجُ أن يتوب منه.

فالتوبةُ من التوبة إنما تُعقل على أحد هذين الوجهين.

نعم، هاهنا وجهٌ ثالثٌ لطيفٌ جدًّا، وهو أنَّ من حَصَل له مقامُ أُنسٍ بالله، وصَفَى وقتُه مع الله، بحيث يكونُ إقبالُه على الله، واشتغالُه بذكر آلائه وأسمائه وصفاته أنفعَ شيءٍ له، حتى نزل عن هذه الحالة، واشتغل بالتوبة من جنايةٍ سالفة قد تاب منها، وطالَع الجناية، واشتغل بها عن الله، فهذا نقصٌ ينبغي له أن يتوبَ إلى الله منه، وهو توبةٌ من هذه التوبة؛ لأنه

نزولٌ من الصَّفاء إلى الجفاء. والله أعلم»(١).

التائب عالي الهمَّة ورؤيته لمشهد الأسماء والصفات: لماذا خلَّى الله بينه وبين الذنب؟:

□ قال شيخ الإسلام الهروي صاحب المنازل: «إن الله ﷻ إنما خَلَّى العبد والذنب لأجل معنيَيْن:

أحدهما: أن يعرف عِزَّته في قضائه، وبِرَّه في سِتره، وحِلمَه في إمهال راكبه، وكرمَه في قبول العذر منه، وفضلَه في مغفرته.

والثاني: أن يُقيم على عبده حجةَ عدْله، فيعاقبَه على ذنبه بحجَّته»(٢).

حين ينظرُ العبدُ إلى تمكين الله له من المعصية، وتخليتِه بينه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها. فيُحدثُ له ذلك أنواعًا من المعرفةِ بالله وأسمائه وصفاته، وحكمتِه، ورحمته، ومغفرتِه وعفوِه، وحلمِه وكرمِه. وتوجب له هذه المعرفةُ عبوديةً بهذه الأسماء، لا تحصُلُ بدون لوازمها ألبتة. ويعلمُ ارتباطَ الخلق والأمر، والجزاءَ والوعد والوعيد بأسمائه وصفاته، وأن ذلك موجبُ الأسماء والصفات، وأثرُها في الوجود، وأن كل اسم وصفةٍ مقتضٍ لأثره وموجبه، متعلِّقٌ به لابد منه.

وهذا المشهد يُطْلِعه على رياضٍ مُونِقَة من المعارف والإيمان، وأسرارِ القدَر والحكمة، يَضيقُ عن التعبير عنها نطاقُ الكَلِم:

□ فمن بعضها: ما ذكره الشيخ «أن يعرفَ العبدُ عزَّته في قضائه» وهو أنه سبحانه العزيزُ الذي يقضي بما يشاء، وأنه لكمالِ عزَّته حكَمَ على العبد

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٣- ٢٠٤).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤).

وقضى عليه، بأن قَلَّب قلبَه وصَرَّف إرادتَه على ما يشاء. وحال بين العبد وقلبه، وجعله مريدًا شائيًا لما شاء منه العزيزُ الحكيم، وهذا من كمال العزة، إذ لا يقدرُ على ذلك إلَّا الله. وغايةُ المخلوق: أن يتصرَّف في بدنك وظاهرك، وأما جعلُك مريدًا شائيًا لما يشاؤه منك ويريده: فلا يقدرُ عليه إلَّا ذو العزَّة الباهرة.

فإذا عرف العبدُ عزَّ سيده ولاحظه بقلبه، وتمكَّن شهودُه منه، كان الاشتغال به عن ذلِّ المعصية أولى به وأنفعَ له؛ لأنه يصيرُ مع الله لا مع نفسه.

□ ومن معرفة عزَّته في قضائه: أن يعرفَ أنه مدبَّرٌ مقهور، ناصيتُه بيد غيره، لا عصمةَ له إلَّا بعصمته، ولا توفيقَ له إلَّا بمعونته، فهو ذليلٌ حقير، في قبضة عزيزٍ حميد.

□ ومن شهود عزَّته أيضًا في قضائه: أن يشهدَ أن الكمالَ والحمد، والغَناءَ التام، والعزَّةَ كلَّها لله، وأن العبدَ نفسَه أولى بالتقصير والذم والعيبِ والظلم والحاجة. وكلما ازداد شهودُه لذله ونقصه وعيبه وفقره، ازداد شهودُه لعزَّة الله وكماله، وحمدِه وغناه، وكذلك بالعكس، فنقصُ الذنب وذلَّتُه يطلعُه على مشهد العزة.

ومنها: أن العبدَ لا يريدُ معصيةَ مولاه من حيث هي معصية، فإذا شَهِد جَرَيان الحُكم، وجعله فاعلًا لما هو غيرُ مختار له، مريدٍ بإرادته ومشيئته واختياره، فكأنه مختارٌ غيرُ مختار، مريدٌ غيرُ مريد، شاءٍ غير شاء، فهذا يَشهدُ عزَّةَ الله وعظمته، وكمال قدرته.

ومنها: أن يعرف بِرَّه سبحانه في سِتره عليه حالَ ارتكاب المعصية، مع كمال رؤيته له، ولو شاء لفضحه بين خلْقه فحذِروه، وهذا من كمال برِّه،

ومن أسمائه «البَرُّ»، وهذا البِرُّ من سيده كان عن به كمال غناه عنه، وكمالِ فقر العبد إليه. فيشتغلُ بمطالعة هذه المنة، ومشاهدةِ هذا البر والإحسان والكرم، فيَذهلُ عن ذِكر الخطيئة، فيبقى مع الله سبحانه، وذلك أنفعُ له من الاشتغال بجنايته، وشهودِ ذُلِّ معصيته، فإن الاشتغالَ بالله والغفلة عما سواه: هو المطلَبُ الأعلى، والمقصدُ الأسنى، ولا يوجبُ هذا نسيانَ الخطيئة مطلقًا، بل في هذه الحال، فإذا فَقَدها فليرجع إلى مطالعةِ الخطيئة، وذِكرِ الجناية، ولكل وقتٍ ومقام عبوديةٌ تليقُ به.

ومنها: شهودُ حِلمِ الله سبحانه وتعالى في إمهالِ راكب الخطيئة، ولو شاء لعاجَله بالعقوبة، ولكنه الحليمُ الذي لا يَعْجَل، فيُحدِثُ له ذلك معرفةَ ربه سبحانه باسمه «الحليم»، ومشاهدةَ صفة «الحِلم»، والتعبدَ بهذا الاسم.

والحكمةُ والمصلحة الحاصلة من ذلك بتوسط الذنب: أحبُّ إلى الله، وأصلح للعبد، وأنفعُ من فَوتها، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع.

ومنها: معرفةُ العبد كرمَ ربِّه في قبول العذر منه إذا اعتذر إليه بنحو ما تقدَّم من الاعتذار، لا بالقَدَر، فإنه مخاصمةٌ ومحاجة، كما تقدم. فيَقبلُ عُذرَه بكرمه وجوده، فيوجبُ له ذلك اشتغالًا بذكره وشكره، ومحبةً أخرى لم تكن حاصلةً له قبل ذلك، فإن محبتَك لمن شَكَرك على إحسانك وجازاك به، ثم غفر لك إساءتك ولم يؤاخذك بها: أضعافُ محبتِك على شكر الإحسان وحده، والواقع شاهدٌ بذلك، فعبوديةُ التوبة بعد الذنب لونٌ، وهذا لونٌ آخر.

ومنها: أن يَشهدَ فضلَه في مغفرته، فإن المغفرة فضل من الله وإلَّا فلو أخذك بمحض حقه كان عادلًا محمودًا وإنما عفوُه بفضله لا باستحقاقك،

فيوجب لك ذلك أيضًا شكرًا له ومحبة، وإنابةً إليه، وفرحًا وابتهاجًا به، ومعرفة له باسمه «الغفار» ومشاهدة لهذه الصفة، وتعبدًا بمقتضاها، وذلك أكمل في العبودية، والمحبة والمعرفة.

ومنها: أن يُكَمِّلَ لعبده مراتب الذل والخضوع والانكسار بين يديه، والافتقار إليه، فإن النفس فيها مضاهاةٌ للربوبية، ولو قَدرت لقالت كقول فرعون، ولكنه قدَر فأظهر، وَغَيْرُه عجز فأضمر،وإنما يُخَلِّصها من هذه المضاهاة ذل العبودية، وهو أربع مراتب:

المرتبة الأولى: مشتركة بين الخلق، وهي ذُلُّ الحاجة والفقرِ إلى الله، فأهل السموات والأرض جميعًا محتاجون إليه، فقراء إليه، وهو وحده الغني عنهم. وكل أهل السماوات والأرض يسألونه، وهو لا يسأل أحدًا.

المرتبة الثانية: ذُلُّ الطاعةِ، والعبودية. وهو ذُلُّ الاختيار، وهذا خاصٌّ بأهل طاعته. وهو سرُّ العبودية.

المرتبة الثالثة: ذُلُّ المحبة، فإن المُحِبَّ ذليلٌ بالذات، وعلى قدْر محبته له يكون ذُلُّه، فالمحبةُ أُسِّست على الذِّلة للمحبوب، كما قيل:

اخضَعْ وَذِلَّ لمن تحبُّ فليس في ... حُكم الهوى أنْف يُشَال ويعقد

□ وقال آخر:

مساكينُ أهلُ الحب، حتى قبورهم ... عليها ترابُ الذل بين المقابر (١)

المرتبة الرابعة: ذل المعصية والجناية.

فإذا اجتَمعت هذه المراتب الأربع: كان الذلُّ لله والخضوعُ له أكملَ

(١) أذل لمن أهوىٰ لأكسب عزة ... وكم عـزة قد نالها المرء بالذل
إذا كان من تهوىٰ عزيزًا ولم تكن ... ذليلا له، فاقرئ السلام على الوصل

وأتم. إذ يَذِلُّ له خوفًا وخشية، ومحبةً وإنابةً، وطاعةً، وفقرًا وفاقة.

وحقيقة ذلك: هو الفقرُ الذي يُشير إليه القوم. وهذا المعنى أجلُّ من أن يسمى بالفقر، بل هو لُبُّ العبودية وسرُّها، وحصوله أنفعُ شيءٍ للعبد، وأحبُّ شيءٍ إلى الله.

فلابد من تقدير لوازمه: من أسبابِ الضعف، والحاجة، وأسبابِ العبودية والطاعة، وأسباب المحبة والإنابة، وأسباب المعصية والمخالفة، إذ وجودُ الملزوم بدون لازمه ممتنع، والغايةُ من تقدير عدم هذا الملزوم ولازمه، مصلحةُ وجوده خيرٌ من مصلحة فَوْته، ومفسدةُ فوته أكبرُ من مفسدة وجوده، والحكمةُ مبناها على دفع أعظم المفسدتين باحتمال أدناهما، وتحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما. وقد فُتح لك الباب، فإن كنت من أهل المعرفة فادخل، وإلَّا فردَّ الباب وارجِعْ بسلام.

ومنها: أن أسماءَه الحسنى تقتضي آثارُها اقتضاءَ الأسباب التامة لمسبباتها، فاسم «السميع، البصير» يقتضي مسموعًا ومبصرًا، واسم «الرزاق» يقتضي مرزوقًا، واسم «الرحيم» يقتضي مرحومًا، وكذلك أسماء «الغفور، والعفو، والتواب، والحليم» يقتضي من يغفر له، ويتوب عليه، ويعفو عنه، ويحلم، ويستحيل تعطيل هذه الأسماء والصفات، إذ هي أسماء حسنى وصفات كمال، ونعوت جلال، وأفعال حكمة وإحسان وجود. فلابد من ظهور آثارها في العالم. وقد أشار إلى هذا أعلم الخلق بالله، صلوات الله وسلامه عليه، حيث يقول: «**لو لم تُذنبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم يذنبون، ثم يستغفرون فيغفرُ لهم**».

وأنت إذا فرضتَ الحيوان بجملته معدومًا، فمَن يرزقُ الرزاقُ سبحانه؟ وإذا فرضتَ المعصيةَ والخطيئةَ منتفيةً من العالَم. فلمن يغفر،

وعمن يعفو؟ وعلى من يتوبُ ويحلُم؟ وإذا فرضت الفاقات كلَّها قد سُدَّت، والعبيد أغنياءَ معافَون. فأين السؤال والتضرع والابتهال؟ والإجابة وشهود الفضل والمنة، والتخصيص، بالإنعام والإكرام؟

فسبحان من تعرَّف إلى خلقه بجميع أنواع التعرفات، وَدَلَّهُم عليه بأنواع الدلالات، وفتح لهم إليه جميع الطرقات، ثم نصب إليه الصراط المستقيم، وعَرَّفهم به ودلهم عليه ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾ [الأنفال]»[1].

التائب عالي الهمة واعتباره بالمعصية:

عالي الهمة صاحبُ البصيرة إذا صدرت منه الخطيئةُ، فله نظرٌ إلى أمور:

أحدها: أن ينظرَ إلى أمر الله ونهيه. فيُحدثُ له ذلك الاعترافَ بكونها خطيئة، والإقرارَ على نفسه بالذنب.

الثاني: أن ينظر إلى الوعد والوعيد. فيُحدِث له ذلك خوفًا وخشية، تحمله على التوبة.

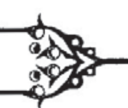
الثالث: أن ينظرَ إلى تمكين الله له منها، وتخليتِه بينه وبينها، وتقديرِها عليه، وأنه لو شاء لعصمه منها، فيحدث له ذلك أنواعًا من المعرفة بالله وأسمائه وصفاته»[2].

النظر الرابع: النظرُ إلى محل الجناية ومصدرِها، وهو النفسُ الأمارة بالسوء، ويفيدُه نظرُه إليها أمورًا:

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤- ٢٠٩).

(٢) «مدارج السالكين» (١/ ٢٠٤).



منها: أن يعرفَ أنها جاهلةٌ ظالمة، وأن الجهل والظلم يصدر عنهما كلُّ قول وعمل قبيح، وَمَن وَصفُه الجهلُ والظلمُ لا مطمع في استقامته واعتداله ألبته. فيوجب له ذلك بذْلَ الجَهد في العلم النافع الذي يخرجُها به عن وصف الجهل.

والعملُ الصالح الذي يخرجُها به عن وصف الظلم، ومع هذا فجهلُها أكثر من علمها وظلمُها أعظمُ من عدلها.

فحقيقٌ بمن هذا شأنُه أن يرغب إلى خالقها وفاطرها أن يَقِيَها شرَّها. وأن يؤتيَها تقواها ويزكيها، فهو خير من زكاها؛ فإنه رَبُّها ومولاها، وأن لا يَكِلَه إليها طَرْفَةَ عين، فإنه إن وَكَله إليها هلك. فما هلك من هلك إلَّا حيث وُكِلَ إلى نفسه.

• وقال النبي ﷺ لحُصين بن المنذر: «**قل: اللهمَّ أَلهِمْني رُشْدِي، وَقِني شَرَّ نفسي**».

• وفي خطبة الحاجة: «**الحمدُ لله. نحمدُه ونستعينُه، ونستهديه، ونستغفرُه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئاتِ أعمالنا**».

* وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٩﴾ [الحشر].

* وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣].

* فمن عرف حقيقة نفسه وما طُبِعت عليه: علم أنها مَنْبَع كل شر، ومأوى كل سوء، وأن كل خير فيها ففضلٌ من الله مَنَّ به عليها، لم يكن منها، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

* وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ

﴿ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ [الحجرات] فهذا الحب وهذه الكراهة لم يكونا في النفس ولا بها، ولكن هو الله الذي مَنَّ بهما، فجعل العبدَ بسببهما من الراشدين ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةًۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٨﴾ [الحجرات] «عليم» بمن يصلح لهذا الفضل ويزكوا عليه وبه، ويثمر عنده، «حكيم» فلا يضعه عند غير أهله فيضيعه بوضعه في غير موضعه.

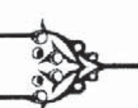
ومنها: ما ذكره صاحب المنازل فقال:

«**اللطيفة الثانية**: أن يعلمَ أن نظر البصير الصادق في سيئته لم يُبقِ له حسنةً بحال؛ لأنه يسيرُ بين مشاهدة المِنَّة، وتَطَلُّبِ عيب النفس والعمل».

يريد: أن من له بصيرةٌ بنفسه، وبصيرة بحقوق الله، وهو صادقٌ في طلبه: لم يُبقِ له نظرُه في سيئاته حسنةً ألبتة، فلا يلقى الله إلَّا بالإفلاس المحض، والفَقر الصِّرف؛ لأنه إذا فتش عن عيوب نفسه وعيوب عمله علم أنها لا تصلح لله، وأن تلك البضاعة لا تُشتَرى بها النجاة من عذاب الله. فضلًا عن الفوز بعظيم ثواب الله، فإن خَلَص له عملٌ وحال مع الله، وصفَا له معه وقتٌ شاهدَ مِنَّة الله عليه به، ومجردَ فضله، وأنه ليس من نفسه، ولا هي أهلٌ لذاك، فهو دائمًا مشاهد لمنة الله عليه، ولعيوبِ نفسه وعمله؛ لأنه متى تطلَّبَها رآها.

وهذا من أجلِّ أنواع المعارف وأنفعها للعبد. ولذلك كان سيدُ الاستغفار: «**اللهمَّ أنت ربِّي لا إله إلَّا أنت، خلقتَني، وأنا عبدكُ، وإنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذُ بك من شر ما صنعتُ، أبوء لك بنعمتك علي، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي، إنه لا يغفرُ الذنوب إلَّا أنت**».

فتضمَّن هذا الاستغفار: الاعترافَ من العبد بربوبية الله، وإلهيته وتوحيده. والاعتراف بأنه خالقه، العالِمُ به: إذا أنشأة نشأة تستلزمُ عجزه



عن أداء حقِّه وتقصيره فيه، والاعتراف بأنه عبده الذي ناصيتُه بيده وفي قبضته، لا مهربَ له منه، ولا وليَّ له سواه، ثم التزام الدخولَ تحت عهده -وهو أمرُه ونهيه- الذي عَهدُه إليه على لسان رسوله، وأن ذلك بحسب استطاعتي، لا بحسب أداءِ حقِّك، فإنه غير مقدور للبشر، وإنما هو جَهْدِ المقِلِّ، وقدرُ الطاقة، ومع ذلك فأنا مصدقٌ بوعدك الذي وعدتَه لأهل طاعتك بالثواب، ولأهل معصيتك بالعقاب، فأنا مقيمٌ على عهدك، مصدِّقٌ بوعدك، ثم أفزع إلى الاستعاذة والاعتصام بك من شَرِّ ما فَرَّطت فيه من أمرك ونهيك، فإنك إن لم تُعذْني من شرِّه، وإلَّا أحاطت بي الهلَكَة؛ فإن إضاعة حقك سبب الهلاك، وأنا أقِرُّ لك وألتزِم بنعمتكم عليَّ. وأقر وألتزم وأنْخَعُ بذَنْبي، فمنك النعمة والإحسان والفضل. ومني الذنبُ والإساءة، فأسألك أن تغفر لي بمحْو ذَنبي، وأن تُعْفِيني من شَرِّه، إنه لا يغفر الذنوب إلَّا أنت.

فلهذا كان هذا الدعاء سيدَ الاستغفار، وهو متضمنٌ لمحض العبودية، فأي حَسَنة تبقى للبصير الصادق، مع مشاهدته عيوبَ نفسه وعملِه، ومنةِ الله عليه؟ فهذا الذي يُعطيه نظرُه إلى نفسه ونقصه.

النظر الخامس: نظره إلى الآمر له بالمعصية، المزَيِّن له فعلَها، الحاض له عليها، وهو شيطانه الموكَّل به.

فيفيده النظر إليه، وملاحظتُه: اتخاذَه عدوًا، وكمال الاحتراز منه، والتحفظ واليقظة: والانتباه لما يريد منه عدوه وهو لا يشعر. فإنه يريد أن يظفر به في عَقَبة من سبع عَقَبات، بعضها أصعبُ من بعض. لا ينزل منه

من العقبة الشاقة إلى ما دونها إلَّا إذا عجَز عن الظَفر به فيها»[١].

تدرُّج الشيطان في الإغواء بعقباته السبع:

العقبة الأولى: عقبة الكفر بالله وبدينه ولقائه، وبصفات كماله، وبما أخبرت به رسله عنه، فإنه إن ظفر به في هذه العقبة بردَتْ نارُ عداوته واستراح، فإن اقتحم هذه العقبة ونجا منها ببصيرة الهداية، وسلم معه نور الإيمان طلبه على.

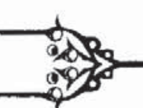
العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسلَ الله به رسوله، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بها لم يأذن به الله: من الأوضاع والرسوم المحدَثة في الدين، التي لا يقبل الله منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان. قَلَّ أن تنفعك إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تزوجت بدعةُ الأقوال ببدعة الأعمال. فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يفاجئهم إلَّا وأولاد الزنا يعيشون في بلاد الإسلام، تضج منهم العباد والبلاد إلى الله تعالى.

□ وقال شيخنا: «تزوجت الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة، فتولَّد بينهما خسران الدنيا والآخرة».

فإن قطع هذه العقَبة، وخلُص منها بنور السنة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصارُ المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمَحَتْ به نَصَب له أهلُ البدع الحبائل، وبغَوُه الغوائل، وقالوا: مبتدع محدث.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢١٩- ٢٢٢).



فإذا وفقه الله لقطع هذه العقبة طلبه على:

العقبة الثالثة: وهي عقبة الكبائر، فإن ظفر به فيها زَيَّنها له، وحَسَّنها في عينه، وسوّف به، وفتح له باب الإرجاء. وقال له: الإيمان هو نفس التصديق. فلا تقدح فيه الأعمال [١]، وربما أجرى على لسانه وأذنه كلمة طالما أهلك بها الخلق، وهي قوله: «لا يَضُرُّ مع التوحيد ذنب، كما لا ينفع مع الشرك حسنة» والظفر به في عقبة البدعة أحب إليه. لمناقضتها الدين، ودفعها لما بعث الله به رسوله. وصاحبها لا يتوب منها، ولا يرجع عنها، بل يدعو الخلق إليها، ولتضمنها القول على الله بلا علم. ومعاداة صريح السنة، ومعاداة أهلها، والاجتهاد على إطفاء نور السنة، وتولية مَنْ عَزَله الله ورسوله، وعَزْل من وَلّاه الله ورسوله. واعتبار مارده الله ورسوله، ورد ما اعتره، وموالاة من عاداه، ومعاداة من والاه. وإثبات ما نفاه، ونفي ما أثبته، وتكذيب الصادق، وتصديق الكاذب. ومعارضة الحق بالباطل، وقلب الحقائق، بجعل الحق باطلًا، والباطل حقًّا، والإلحاد في دين الله، وتعمية الحق على القلوب، وطلب العِوَج لصراط الله المستقيم، وفتح باب تبديل الدين جملة.

فإن البدع تستدرج بصغيرها إلى كبيرها، حتى ينسلخ صاحبها من الدين، كما تنسل الشعرة من العجين، فمفاسد البدع لا يقف عليها إلَّا أرباب البصائر، والعميان ضالون في ظلمة العمى ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا

---

(١) يعني أعمال الفسوق والعصيان. والمعنىٰ المراد: أن الشيطان يقول له -عند فتح باب الإرجاء- إن الإيمان هو نفس التصديق فلا تقدح فيه الأعمال السيئة والمعاصي، وهذا وما بعده هو معنىٰ الإرجاء الذي هو من شر البدع التي أفسدت الدين.

﴿لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝٤٠﴾ [النور].

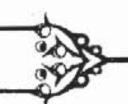
فإن قطع هذه العقبة بعصمة من الله، أو بتوبة نصوح تنجيه منها، طلبه على:

العقبة الرابعة: وهي عقبة الصغائر، فكال له منها بالقُفْزان، وقال: ما عليك إذا اجتنبت الكبائر ما غشيت من اللَّمَم، أوَ ما علمت أنها تكفَّر باجتناب الكبائر وبالحسنات، ولا يزال يهون عليه أمرها حتى يُصِر عليها، فيكون مرتكب الكبيرة الخائف الوجل النادم أحسن حالًا منه، فالإصرار على الذنب أقبح منه. ولا كبيرة مع التوبة والاستغفار، ولا صغيرة مع الإصرار.

وقد قال ﷺ: «**إياكم ومحقرات الذنوب.. ثم ضرب لذلك مثلًا بقوم نزلوا بفلاة من الأرض، فأعوزهم الحطب، فجعل هذا يجيء بعود، وهذا بعود. حتى جمعوا حطبًا كثيرًا، فأوقدوا نارًا، وأنضجوا خُبزتهم، فكذلك فإن محقرات الذنوب تجتمع على العبد -وهو يستهين بشأنها- حتى تهلكه**».

فإن نجا من هذه العقبة بالتحرُّز والتحفظ، ودوام التوبة والاستغفار، وأتبع السيئة الحسنة، طلبه على:

العقبة الخامسة: وهي عقبة المباحات التي لا حرج على فاعلها، فشغله بها عن الاستكثار من الطاعات، وعن الاجتهاد في التزود لمعاده، ثم طمع فيه أن يستدرجه منها إلى ترك السنن، ثم من ترك السنن إلى ترك الواجبات، وأقل ما ينال منه: تفويته الأرباح، والمكاسب العظيمة، والمنازل العالية، ولو عرف السعر لما فوت على نفسه شيئًا من القربات، ولكنه جاهل بالسعر.



فإن نجا من هذه العقبة ببصيرة تامة ونور هاد، ومعرفة بقدر الطاعات والاستكثار منها، وقلة المقام على الميناء، وخطر التجارة، وكرم المشترى، وقدر ما يعوض به التجار، فبخل بأوقاته، وصن بأنفاسه أن تذهب في غير ربح، طلبه العدو على:

العقبة السادسة: وهي «عقبة الأعمال المرجوحة المفضولة من الطاعات»، فأمرهم بها، وحسَّنها في عينه، وزيَّنها له، وأراه ما فيها من الفضل والربح، ليشغله بها عما هو أفضل منها، وأعظم كسبًا وربحًا؛ لأنه لما عجز عن تخسيره أصل الثواب، طمع في تخسيره كماله وفضله، ودرجاته العالية، فشغله بالمفضول عن الفاضل، وبالمرجوح عن الراجح، وبالمحبوب لله عن الأحب إليه، وبالمرضي عن الأرضى له.

ولكن أين أصحاب هذه العقبة؟ فهم الأفراد في العالم، والأكثرون قد ظفر بهم في العقبات الأولى.

فإن نجا منها بفقه في الأعمال ومراتبها عند الله، ومنازلها في الفضل، ومعرفة مقاديرها، والتمييز بين عاليها وسافلها، ومفضولها وفاضلها، ورئيسها ومرؤسها، وسيدها ومسودها، فإن في الأعمال والأقوال سيدًا ومسودًا، ورئيسًا ومرؤسًا، وذروة وما دونها، كما في الحديث الصحيح: «**سيد الاستغفار: أن يقول العبد: اللهم أنت ربي، لا إله إلَّا أنت**» - الحديث، وفي حديث الآخر: «**الجهاد ذروة سنام الأمر**»، وفي الأثر الآخر: «**إن الأعمال تفاخرت، فذكر كل عمل منها مرتبته وفضله، وكان للصدقة مزية في الفخر عليهن**»، ولا يقطع هذه العقبة إلَّا أهل البصائر والصدق من أولى العلم، السائرين على جادة التوفيق، قد أنزلوا الأعمال منازلها، وأعطوا كل ذي حق حقه.

فإذا نجا منها لم يبق هناك عقبة يطلبه العدو عليها سوى واحدة لابد منها. ولو نجا منها أحد لنجا منها رسل الله وأنبياؤه، وأكرم الخلق عليه، وهي:

عقبة تسليط جنده عليه بأنواع الأذى، باليد واللسان والقلب، على حب مرتبته في الخير. فكلما عَلَتْ مرتبته أجلب عليه العدو بخيله ورجله، وظاهَر عليه بجنده، وسلط عليه حزبه وأهله بأنواع التسليط، وهذه العقبة لا حيلة له في التخلص منها؛ فإنه كما جد في الاستقامة والدعوة إلى الله، والقيام له بأمره، جد العدو في إغراء السفهاء به، فهو في هذه العقبة قد لبس لأمة الحرب، وأخذ في محاربة العدو لله وبالله، فعبوديته فيها عبودية خواص العارفين، وهي تسمى عبودية المراغمة»[1].

التائب عالي الهمة له من عبودية المراغمة النصيب الوافر:

□ قال ابن قيم الجوزية عن «عبودية المراغمة»: «ولا يتنبه لها إلَّا أولو البصائر التامة، ولا شيء أحب إلى الله من مراغمة وليه لعدوه، وإغاظته له، وقد أشار سبحانه إلى هذه العبودية في مواضع من كتابه.

أحدها: قوله: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ﴾ [النساء] سمى المهاجر الذي يهاجر إلى عبادة الله مراغمًا يراغم به عدو الله وعدوه، والله يحب من وليه مراغمة عدوه، وإغاظته؛ كما قال تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَطَـُٔونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ ٱلْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِۦ عَمَلٌ صَٰلِحٌ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ ﴾ [التوبة].

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٢- ٢٢٦).

وقال تعالى في مَثل رسول الله ﷺ وأتباعه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، فمغايظة الكفار غاية محبوبة للرب مطلوبة له، فموافقته فيها من كمال العبودية.

وشرع النبي ﷺ للمصلي إذا سها في صلاته سجدتين، وقال: «**إن كانت صلاته تامة كانت ترغمان أنف الشيطان**»، وفي رواية: «**ترغيما للشيطان**»، وسماهما: «**المرغمتين**».

فمن تعبد الله بمراغمة عدوه، فقد أخذ من الصديقية بسهم وافر، وعلى قدر محبة العبد لربه، وموالاته ومعاداته لعدوه، يكون نصيبه من هذه المراغمة؛ ولأجل هذه المرغمة حمد التبختر بين الصفين، والخيلاء والتبختر عند صدقة السر، حيث لا يراه إلَّا الله، لما في ذلك من إرغام العدو، وبذل محبوبه من نفسه وماله لله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا باب من العبودية لا يعرفه إلَّا القليل من الناس، ومن ذاق طعمه بكى على أيامه الأول.

وبالله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله.

وصاحب هذا المقام إذا نظر إلى الشيطان، ولا حظه في الذنب، راغَمه بالتوبة النصوح، فأحدثت له هذه المراغمة عبودية أخرى»[1].

ترقِّي عالي الهمة في التوبة:

عالي الهمة يترقى في مقام التوبة من:

١- رؤيته لحسناته وكثرتها.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٢٦- ٢٢٧).

٢- إلى استقلاله المعصية وهو عين الجرأة والمبارزة لله.

٣- إلى توبته من تضييع المراقبة لله والحضور.

٤- إلى التوبة مما دون الله.

١- **التوبة من رؤيتهم لكثرة طاعتهم**، ورؤية كثرة الطاعة توبة مدخولة منقوصة وحسنات الأبرار المقرّبين.. ورؤية كثرة الطاعة متضمِّنٌ لثلاث مفاسد:

إحداها: أن حسناتهم التي يأتون بها: سيئات بالنسبة إلى مقام الخاصة، فإن حسنات الأبرار سيئات المقربين فهم محتاجون إلى التوبة من هذه الحسنات فلغفلتهم -باستكثارها- عن عيوبها ورؤيتها وملاحظتها: هم جاحدون نعمة الله في سترها عليهم وإمهالهم، كثرة على أهل الذنوب الظاهرة تحت ستره وإمهاله، لكن أهل الذنوب مقرون بتره وإمهاله، وهؤلاء جاحدون لذلك؛ لأنهم قد توفرت هممهم على استكثارهم من الحسنات، دون مطالعة عيب النفس والعمل، والتفتيش على دسائسهما، ومحاسبة النفس عليها، والتمييز بين ما فيها من الحظ والحق. لَشَغلَهم ذلك عن استكثارها؛ ولأجل هذا كان مَنْ عَدِم الحضور والمراقبة والجمعية في العمل، خَفَّ عليه واستكثر منه، فكثر في عينه، وصار بمنزلة العادة؛ فإذا أخذ نفسه بتخليصها من الشوائب، وتنقيتها من الكدر، وما في ذلك من شوك الرياء وشبرق الإعجاب، وجمعية القلب والهم على الله بكليته: وجد له ثقلًا كالجبال، وقَلَّ في عينه، ولكن إذا وجد حلاوته سهل عليه حمل أثقاله، والقيام بأعبائه، والتلذذ والتنعيم به مع ثقله.

وإذا أردت فهم هذا القدر كما ينبغي، فانظر وقت أخذك في القراءة إذا أعرضت عن واجبها وتدبرها وتعلقها، وفهم ما أريد بكل آية، وحظك

من الخطاب بها، وتنزيلها على أدواء قلبك والتقيد بها، كيف تدرك الختمة -أو أكثرها، أو ما قرأت منها- بسهولة وخفة، مستكثرًا من القراءة، فإذا ألزمت نفسك التدبر ومعرفة المراد، والنظر إلى ما يخصك منه والتعبد به، وتنزيل دوائه على أدواء قلبك، والاستشفاء به، لم تكد تجوز السورة أو الآية إلى غيرها. وكذلك إذا جمعت قلبك كله على ركعتين، أعطيتهما ما تقدر عليه من الحضور، والخشوع والمراقبة: لم تكد أن تصلي غيرهما إلَّا بجهد، فإذا خلا القلب من ذلك عددت الركعات بلا حساب، فالاستكثار من الطاعات دون مراعاة آفاتها وعيوبها ليتوب منها هي توبة العامة.

المفسدة الثانية: رؤية فاعلها أن له حقًّا على الله في مجازاته على تلك الحسنات بالجنات والنعيم والرضوان، ولهذا كثرت في عينه مع غفلته عن أعماله، ولو كانت أعمال الثقلين لا تستقل بدخول الجنة ولا بالنجاة من النار، وأنه لن ينجو أحد ألبتة من النار بعمله، إلَّا بعفو الله ورحمته.

الثالثة: استشعارهم الاستغناء عن مغفرة الله وعفوه، بما يشهدون من استحقاق المغفرة، والثواب بحسناتهم وطاعاتهم، فإن ظنهم أن حصول النجاة والثواب بطاعاتهم، واستكثارهم منها لذلك، وكثرتها في عيونهم إظهار للاستغناء عن مغفرة الله وعفوه، وذلك عين الجبروت والتوثب على الله»[1].

وتوبة الأوساط: من استقلال العبد المعصية، وهو عين الجُرأة والمبارزة:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «يريد: أن استقلالَ المعصية ذنب، كما أن

---

(١) «المدارج» (١/ ٢٥٧- ٢٥٩).

استكثار الطاعة ذنب، والعارفُ من صغرت حسناتُه في عينه، وعظُمت ذنوبُه عنده، وكلما صغُرت الحسنات في عينك كبرت عند الله، وكلما كبرت وعظمت في قلبك قلت وصغرت عند الله، وسيئاتك بالعكس، ومن عرف الله وحقه وما ينبغي لعظمته من العبودية: تلاشت حسناته عنده، وصغرت جدًّا في عينه، وعلم أنها ليست مما ينجو بها من عذابه. وأن الذي يليق بعزته، ويصلح له من العبودية: أمر آخر. وكلما استكثر منها استقلها واستصغرها؛ لأنه كلما استكثر منها فتحت له أبواب المعرفة بالله والقرب منه، فشاهد قلبه من عظمته سبحانه وجلاله ما يستصغر معه جميع أعماله، ولو كانت أعمال الثقَلين، وإذا كثرت في عينه وعظمت دل على أنه محجوب عن الله، غيرَ عارف به وبما ينبغي له، وبحسب هذه المعرفة ومعرفته بنفسه يستكثر ذنوبه، وتعظم في عينه، لمشاهدته الحق ومستحقه، وتقصيره في القيام به، وإيقاعه على الوجه اللائق الموافق لما يحبه الرب ويرضاه من كل وجه.

إذا عرف هذا، فاستقلال العبد المعصية عين الجرأة على الله، وجهل بقدر من عصاه وبقدر حقه، وإنما كان مبارزة لأنه إذا استصغر المعصية واستقلها هان عليه أمرها، وخفت على قلبه، وذلك نوع مبارزة»[(١)].

وتوبة الخواص: من تضييع الإقبال على الله بالمراقبة والحضور، فإنه يُفضي إلى درك النقيصة، ويطفئ نور المراقبة ويُكدِّر عين الصحبة:

فإضاعة وقت وجدٍ صادق وحال صحيحة مع الله يدعو إلى درك النقيصة، إذ صاحب حفظه مترق على درجات الكمال، فإذا أضاعه لم يقف

(١) المصدر السابق (١/ ٢٦٥).

موضعه، بل ينزل إلى درجات من النقص، فإن لم يكن في تقدم فهو متأخر ولابد، فالعبد سائر لا واقف، فإما إلى فوق، وإما إلى أسفل، إما إلى أمام وإما إلى وراء، وليس في الطبيعة، ولا في الشريعة وقوف ألبتة، ما هو إلَّا مراحل تطوى أسرع طي إلى الجنة أو إلى النار، فمسرع ومبطئ، ومتقدم ومتأخر، وليس في الطريق واقف ألبتة، وإنما يتخالفون في جهة المسير وفي السرعة والبطء ﴿إِنَّهَا لَإِحْدَى ٱلْكُبَرِ ﴿٣٥﴾ نَذِيرًا لِّلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾﴾ [المدثر] ولم يذكر واقفًا، إذ لا منزل بين الجنة والنار، ولا طريق لسالك إلى غير الدارين ألبتة. فمن لم يتقدم إلى هذه الأعمال الصالحة فهو متأخر إلى تلك بالأعمال السيئة.

فإن قلت: كل محب في طلب شيء لابد أن يعرض له وقفة وفتور، ثم ينهض إلى طلبه.

قلت: لابد من ذلك، ولكن صاحب الوقفة له حالان: إما أن يقف ليجِمَّ نفسه، ويعدها للسير، فهذا وقفته سير، ولا تضره الوقفة، فإن «لكل عمل شِرَّة، ولكل شرة فترة».

وإمَّا أن يقف لداعٍ دعاه من ورائه، وجاذب جذبه من خلفه، فإن أجابه أخَّره ولابد، فإنْ تداركه الله برحمته وأطلعه على سبق الرَّكْب له وعَلَى تأخُّره، نهض نهضة الغضبان الآسف على الانقطاع، ووثب وجمز واشتدَّ سعيًا ليلحق الرَّكْب، وإن استمرَّ مع داعي التأخُّر، وأصغى إليه لم يرض بردِّه إلى حالته الأولى من الغفلة، وإجابة داعي الهوى، حتى يردَّه إلى أسوأ منها وأنزل دَرَكًا، وهو بمنزلة النكسة الشديدة عَقيب الإبلال من المرض، فإنها أخطر وأصعب.

وبالجملة: فإن تدارك الله سبحانه وتعالى هذا العبد بجذبه منه من يد

عدوِّه وتخليصه، وإلَّا فهو في تأخُّر إلى المات، راجع القهقري، ناكصٌ على عقبيْه، أو مُوَلٍّ ظهره، ولا قوة إلَّا بالله، والمعصوم من عصمه الله.

□ وقوله: «ويطفئ نور المراقبة»:

يعني أن المراقبة تُعطِي نورًا كاشفًا لحقائق المعرفة والعبودية، وإضاعة الوقت تُغطي ذلك النور، وتُكدِّرُ عين الصحبة مع الله. فإن صاحب الوقت مع صحبة الله، وله مع الله معيّة خاصة، بحسب حفظه وقته مع الله، فإن كان مع الله كان الله معه، فإذا أضاع وقته كَدَّر عين هذه المعية الخاصة، وتعرّض لقطع هذه الصحبة، فلا شيء أضرُّ على العارف بالله من إضاعة وقته مع الله، ويُخشَى عليه إن لم يتداركه بالرجوع أن تستمِرَّ الإضاعة إلى يوم القيامة، فتكون حسرته وندامته أعظم من حسرة غيره وندامته.. ويكون حاله شبيهًا بحال قوم يُؤمر بهم إلى الجنة، حتى إذا عاينوها وشاهدوا ما فيها، صُرِفت وجوهُهم عنها إلى النار»[1].

التوبة مما دون الله:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «التوبة مما دون الله: أن يخرَجَ العبدُ بقلبه عن إرادة ما سوى الله تعالى، فيعبده وحده لا شريك له بأمره وباستعانته، فيكون كلُّه له وبه.

وهذا أمرٌ لا يصح إلَّا لمن استولى عليه سلطان المحبَّة، فامتلأ قلبه من الله محبَّة له وإجلالًا وتعظيمًا، وذُلًّا وخضوعًا وانكسارًا بين يديه، وافتقارًا إليه.

فإذا صح له ذلك بقيت عليه بَقِيَّةٌ أخرى، هي عِلَّة في توبته، وهي

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٦٦- ٢٦٨).

رؤيته لها، وتوبته من رؤية تلك الرؤية..

وأمّا رؤيته له واقعًا بِمنَّة الله وفضله، وحوله وقوّته وإعانته، فهذا أكمل من غيبته عنه.. وأتم عبودية»(١).

التائب عالي الهمة من يتوب من أجناس المحرَّمات كلها:

□ قال ابن القيم تحت عنوان: «في أجناس ما يُتاب منه»: «ولا يستحق العبد اسم «التائب» حتى يتخلص منها.

وهي اثنا عشر جنسًا مذكورة في كتاب الله ﷻ. هي أجناس المحرمات: الكفر، والشرك، والنفاق، والفسوق، والعصيان، والإثم، والعدوان، والفحشاء، والمنكر، والبغي، والقول على الله بلا علم، واتباع غير سبيل المؤمنين.

فهذه الاثنا عشر جنسًا عليها مدار كل ما حرم الله، وإليها انتهاء العالم بأسرهم إلَّا أتباع الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وقد يكون في الرجل أكثرها وأقلها، أو واحدة منها، وقد يعلم ذلك، وقد لا يعلم.

فالتوبةُ النصوح: هي بالتخلص منها، والتحصُّن والتحرزُ من مواقعتها، وإنما يمكن التخلص منها لمن عرفها»(٢).

فأمَّا الكفر فنوعان:

□ **كفر أكبر موجب للخلود في النار.**

وهو خمسة أنواع: كفر التكذيب، وكفر الاستكبار، وإباء مع التصديق، وكفر إعراض، وكفر شك وكفر نفاق.

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٢٦٩- ٢٧٠).

(٢) المصدر السابق (١/ ٣٣٥).

□ **وأما الكفر الأصغر**: فموجب لاستحقاق الوعيد دون الخلود.

وأما الشرك فنوعان:

□ **شرك أكبر**: وهو أن يتخذ من دون الله نِدًّا يحبه كما يحب الله، واتخاذ الشفعاء لهم عند الله.

□ **وأما الشرك الأصغر**: كيسير الرياء، والتصنُّع لغير الله، والحلف بغير الله.

والنفاق الداء العضال نوعان: أكبر وأصغر

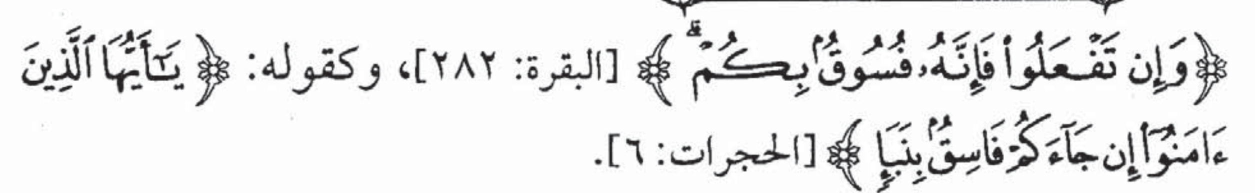
□ **أما الأكبر**: فهو الذي يوجب الخلود في النار في درْكها الأسفل. وهو أن يُظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وهو في الباطن منسلخٌ من ذلك كله مُكذِّبٌ له.

□ **وأما النفاق الأصغر**: فهو من كانت فيه خصلة من هذه الخصال: إذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا أؤتمن خان، وإذا حدث كذب، وإذا خاصم فجر.

وأما الفسوق فنوعان: مفرد مطلق، ومقرون بالعصيان:

□ والمفرَد نوعان: فسوق كفر يخرج عن الإيمان كقوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [البقرة]، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [البقرة]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ [السجدة].

□ وأما الفسوق الذي لا يُخرجُ عن دائرة الإسلام فكقوله تعالى:



﴿وَإِن تَفْعَلُوا۟ فَإِنَّهُۥ فُسُوقٌۢ بِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢]، وكقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ﴾ [الحجرات: ٦].

وهو **قسمان**: فسق من جهة العمل، وهو ارتكاب ما نهى الله عنه، فالفسق أخص بارتكاب النهي، والمعصية أخصُّ بمخالفة الأمر، ويطلق كلٌّ منهما على صاحبه.

□ **وفسق الاعتقاد**: كفسق أهل البدع من هذه الملة: كالخوارج والروافض، والقدريَّة، والمعتزلة، وكثيرٌ من الجهمية الذين ليسوا غُلاةً في التجهُّم.

□ وأما «الإثم والعدوان» فهما قرينان، قال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ﴾ [المائدة: ٢]، وكل منهما إذا أُفرد تضمّن الآخر ولكن عند اقترانهما فهما شيئان بحسب متعلقهما ووصفهما:

فـ «الإثم» ما كان محرم الجنس: كالكذب، والزنا، وشرب الخمر. و«العدوان» ما كان محرَّم القدر والزيادة.

□ وأما «الفحشاء والمنكر»:

فالفحشاء: صفة لموصوف قد حُذِف تجريدًا لقصد الصفة. وهي الفعلة الفحشاء. وهي: ما ظهر قبحُها لكل أحد، واستفحشها كل ذي عقل سليم؛ ولهذا فُسِّرت بالزنا واللواط، وسماهما الله فاحشة لتناهي قبحهما، وكذلك الفُحْش في القول كالسَّب القبيح والقذف.

والمُنكَر: ما لم تعرفه ولم تألفه. والقبيح المستكرَه لها الذي تشتد نفرتُها عنه هو الفاحشة؛ ولذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الفاحشة: الزنا، والمنكر: ما لم يُعرَف في شريعة ولا سُنَّة».

□ وأما «القول على الله بغير علم»: فهو من أشدِّ المحرَّمات تحريمًا

وأعظمها إثمًا، ولهذا ذُكِر في المرتبة الرابعة من المحرَّمات التي اتفقت عليها الشرائع والأديان ولا تُباح بحال، بل لا تكون إلَّا مُحرَّمة.

* قال الله تعالى في المُحَرَّم لذاته: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾ [الأعراف]، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه فقال: ﴿ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف]، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ﴾ [الأعراف]، ثم انتقل إلى ما هو أعظم منه، فقال: ﴿ وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٣) ﴾ [الأعراف: ٣٣]. وهو أصل الشرك والكفر، وعليه أسست البدع والضلالات.

التائب عالي الهِمَّة: التائب إلى الله توبةً نصوحًا:

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ [التحريم: ٨]، فجعل وقاية شر السيئات -وهو تكفيرها- بزوال ما يكره العبد، ودخول الجنات -وهو حصول ما يحب العبد- منوطًا بحصول التوبة النصوح.

و«النصوح» على وزن فعول المعدول به عن فاعل قصدًا للمبالغة، كالشَّكور والصبور، وأصل مادة «ن ص ح» لخلاص الشيء من الغش والشوائب الغريبة، وهو ملاق في الاشتقاق الأكبر لنَصَح إذا خلص. فالنصح في التوبة والعبادة والمشورة: تخليصها من كل غش ونقص وفساد. وإيقاعها على أكمل الوجوه. والنصح ضد الغش.

✍ وقد اختلف عبارات السلف عنها. ومرجعها إلى شيء واحد.

□ فقال عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «التوبة النصوح: أن يتوب من الذنب، ثم لا يعود إليه، كما لا يعود اللبن إلى الضَّرْع».

□ وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «هي أن يكون العبد نادمًا على ما مضى، مجمعًا على أن لا يعود فيه».

□ وقال الكلبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «أن يستغفر باللسان، ويندم بالقلب، ويمسك بالبدن».

□ وقال سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «توبة نصوحًا، تنصحون بها أنفسكم» جعلها بمعنى ناصحة للتائب، كضروب المعدول عن ضارب.

وأصحاب القول الأول يجعلونها بمعنى المفعول، أي قد نصح فيها التائب ولم يَشُبْها بغش. فهي إما بمعنى منصوح فيها، كركوبة وحَلوبة، بمعنى مركوبة ومحلوبة، أو بمعنى الفاعل. أي ناصحة كخالصة وصادقة.

□ وقال محمد بن كعب القُرظي: «يجمعها أربعة أشياء: الاستغفار باللسان، والإقلاع بالأبدان، وإضمار ترك العود بالجنان، ومهاجرة سيء الإخوان».

قلت: النصح في التوبة يتضمن ثلاثة أشياء:

الأول: تعميم جميع الذنوب واستغراقها بها بحيث لا تدع ذنبًا إلَّا تناولته.

والثاني: إجماع العزم والصدق بكليته عليها، بحيث لا يبقى عنده تردد، ولا تلوُّم ولا انتظار. بل يجمع عليها كل إرادته وعزيمته مبادرًا بها.

الثالث: تخليصها من الشوائب والعلل القادحة في إخلاصها، ووقوعها لمحض الخوف من الله وخشيته، والرغبة فيما لديه، والرهبة مما عنده، لا كمن يتوب لحفظ جاهه وحرمته، ومنصبه ورياسته، ولحفظ حاله، أو لحفظ قوته وماله، أو استدعاء حمد الناس، أو الهرب من ذمهم، أو لئلا يتسلط عليه السفهاء، أو لقضاء نهمته من الدنيا، أو لإفلاسه

وعجزه، ونحو ذلك من العلل التي تقدح في صحتها وخلوصها لله ﷻ.

فالأول: يتعلق بما يتوب منه، والثالث: يتعلق بمن يتوب إليه. والأوسط: يتعلق بذات التائب ونفسه.

فنصح التوبة الصدق فيها، والإخلاص، وتعميم الذنوب بها، ولا ريب أن هذه التوبةَ تسلتزمُ الاستغفار وتتضمنه، وتمحو جميع الذنوب، وهي أكمل ما يكون من التوبة. والله المستعان، وعليه التكلان، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله»[1].

□ قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: «قرأ الجمهور: نَصوحًا بفتح النُّون، وقرأ أبو بكر عن عاصم بضمِّها. قال الزجّاج: مَن فَتَح فعَلَى صفة التوبة، والمعنى توبة بالغة في النصح، وفَعُول من أسماء الفاعلين التي تُستعْمَل للمبالغة في الوصف، .. ومن قرأ بالضَّمِّ فمعناهُ يُنصحون بها نصوحًا يُقال: نصحتُ لها نُصْحًا ونَصاحة ونُصُوحًا.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «التوبة النصوح أن يتوب العبد من الذَّنْب وهو يُحدِّث نفسه ألا يعود».

وسُئل الحسن البصري عن التوبة النصوح فقال: «نَدَمٌ بالقلب، واستغفار باللسان، وتركٌ بالجوارح، وإضمارٌ أن لا يعود».

وقال ابن مسعود: «التوبة النصوح تكُفَرِّ كُلَّ سيئة ثم قرأ هذه الآية؟؟؟؟؟؟

اعلم أن التائب الصادق كلما اشتد ندمه زاد مَقْتُه لنفسه على قُبْح زَلَّتِه، فمنهم من قوى مقته لها، ورأى تعريضَها للقتل مباحًا في بعض الأحوال

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٩- ٣١٠).



فعَرَّضها له، كما فَعَل ما عز والغامدية»[١].

✍ **أخي:** يا نادمًا على الذُّنوب أين أثر ندمك؟ أين بكاؤك على زلّة قدمك؟ أين حَذَرُكَ من أليم العقاب، أين قلقك من خوف العتابَ؟ أتعتقد أن التوبة قول باللسان؟ إنما التوبة نارٌ تحرق الإنسان؟ جَرِّد قلبك من الأقذار، ثم ألبسه الاعتذار، ثم حَلِّهِ حُلَّةَ الانكسَار، ثم أقمه على باب الرحيم الغفّار.

□ لهج بعض العُبَّاد بالبكاء، فعوتِبَ على كثرته فقال:

بكيتُ على الذُّنوب لعِظْم جُرْمِي ... وحُقَّ لِكُلِّ من يعصى البكاءُ

فلـوْ أن البكاء يَرُدُّ هَمِّي ... لأسْعَدتِ الدموعَ معًا دمائي

يا هذا:

اكتب قصة الرُّجوعِ بِقَلَمِ النُّزُوع بمداد الدموع، واسْعَ بها على قَدَم الخُضُوع إلى باب الخشوع، وأتبِعْها بالعطش والجوع، وسَلْ رَفْعها فرُبَّ سائلٍ مسموع.

وهاكَ طرفًا من أخبار علاةُ الهِمم من التائبين:

نبأ من قتل مئة نفْس:

• قال رسول الله ﷺ: «**كان فيمن كان قبلكم رجل قَتَل تسعةً وتسعينَ نفسًا، فسأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على راهب فأتاه فقال: إنه قتل تسعةً وتسعين نفسًا فهل له من توبة؟ فقال: لا فقتله فكَمَّل به مئة، ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدُلَّ على رجل عالم، فقال: إنه قتل مئة نفس فهل له**

(١) «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٢٩٥- ٢٩٦).

من توبة فقال: نعم، ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا؛ فإن فيها أناسًا يتعبدون الله فاعبد الله معهم، ولا ترجع إلى أرضك؛ فإنها أرض سوء فانطلق حتَّى إذا نَصَف الطريق أتاه

الموتُ فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة جاء تائبًا مقبلًا بقلبه على الله، وقالت ملائكة العذاب: إنه لم يعمل خيرًا قط، فأتاهم ملك في صورة آدميّ، فجعلوه بينهم فقال: قيسوا ما بين الأرَضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاسوه فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة»(١).

وفي رواية لهما: «فأدركه الموت فنأى بصدره نحوها، فاختصمت فيه ملائكةُ الرحمة وملائكةُ العذاب، فأوحى الله إلى هذه: أن تقرَّبي، وأوحى الله إلى هذه: أن تباعدي، وقال: قيسوا ما بينهما. فوجداه إلى هذه أقرب بشبرٍ، فغُفرَ له».

نبأ الثلاثة الذين خُلِّفُوا وتوبة كعب بن مالك رضي الله عنه:

عن كعب بن مالك رضي الله عنه قال: «لم أتخلفْ عن رسول الله ﷺ في غزوةٍ غزاها قطُّ إلاَّ في غزوة «تبوك»، غير أني قد تخلَّفتُ في غزوة «بدرٍ» ولم يعاتِبْ أحدًا تخلَّف عنه، إنما خرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون عِيرَ قريش، حتى جمع الله بينهم وبين عدوِّهم على غير ميعاد، ولقد شهدتُ مع رسول الله ﷺ ليلةَ العقبة حين تواثقنا على الإسلام(٢)، وما أُحِبُّ أنَّ لي بها مشهدَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٥١٢) «الفتح»، ومسلم (١٧/ ٨٣- ٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري.

(٢) أي: تبايعنا عليه وتعاهدنا.



بدرٍ- وإن كانت بدرٌ أذكرَ في الناس منها-، وكان من خبري حين تخلَّفتُ عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك:أني لم أكن قطُّ أقوى ولا أيْسَر مني حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة، والله ما جمعتُ قبلها راحلتيْن قطُّ حتى جمعتهما في تلك الغزوة، فغزاها رسول الله ﷺ في حرٍّ شديدٍ، واستقبل سفرًا بعيدًا ومفازًا[١]، واستقبل عدوًّا كثيرًا، فجلاَّ[٢] للمسلمين أمَرهم ليتأهَّبوا أهبة[٣] غزْوهم، فأخبرهم بوجههم الذي يريد، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير، ولا يجمعهم كتاب حافظ[٤]. قال كعب: فقلَّ رجلٌ يريد أن يتغيَّب يظنُّ أن ذلك سيخفى له ما لم ينزلْ فيه وحيٌ من الله عزَّ وجلَّ.

وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال، فأنا إليها أَصْعَرُ[٥]، فتجهَّز رسول الله ﷺ والمسلمون معه، وطفقتُ أغدو لكي أتجهَّز معه، فأرجع ولم أقضِ شيئًا، وأقول في نفسي: «أنا قادرٌ على ذلك إذا أردتُ». فلم يزلْ ذلك يتمادى بي حتى استمرَّ بالناس الجدُّ، فأصبح رسول الله ﷺ غاديًا والمسلمون معه، ولم أقضِ من جَهازي شيئًا، ثم غدوتُ فرجعتُ ولم أقضِ شيئًا، فلم يزلْ ذلك يتمادى بي حتى أسرعوا وتفارط[٦] الغزو، فهممتُ أن أرتحل، فأُدرِكَهم، فيا ليتني فعلتُ، ثم لم يُقدَّر ذلك لي، فطفِقتُ إذا خرجتُ في الناس بعدَ خروج رسول الله ﷺ، يَحْزُنني أني لا

---

(١) أرض خلاء قليلة الماء يخاف فيها الهلاك.

(٢) أي: كشفه وبيَّنهُ ووضحه وَعَرَّفهم ذلك علىٰ وجهه من غير تورية .

(٣) ليستعدوا بما يحتاجون إليه في سفرهم.

(٤) أي: الدِّيوان.

(٥) أي: أميل.

(٦) أي: سبق الغزاة وتقدموا.

أرى لي أسوةً إلا رجلًا مغموصًا عليه في النفاق [(١)]، أو رجلًا ممَّن عذَرَ الله من الضعفاء.

ولم يذكرْني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم بتبوك: «ما فعل كعبُ بن مالك؟».

قال رجل من بني سَلَمة: يا رسول الله، حبَسَه بُرْداهُ والنظرُ في عطفيه [(٢)].

فقال له معاذ بن جبل: بئسَ ما قلتَ! والله يا رسول الله، ما علمنا عليه إلاَّ خيرًا. فسكتَ رسول الله ﷺ.

فبينما هو على ذلك رأى رجلًا مُبِيضًا في السَّرابُ [(٣)]، فقال رسول الله ﷺ: «كنْ أبا خيثمة». فإذا هو أبو خيثمة الأنصاريُّ، وهو الذي تصدَّق بصاعِ التمر حين لمَزه المنافقون.

فقال كعب بن مالك: فلمَّا بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجَّه قافلًا [(٤)] من تبوك، حضرني بثِّي [(٥)]، فطفقتُ أتذكَّر الكذبَ، وأقول: بمَ أخرج من سُخْطه غدًا؟ وأستعينُ على ذلك كلَّ ذي رأي من أهلي، فلما قيل لي: «إن رسول الله ﷺ قد أظلَّ قادمًا [(٦)]، زاحَ عني الباطل حتى عرفتُ أني لن

---

(١) أي: متهمًا بالنفاق.

(٢) إشارة إلى إعجابه بنفسه ولباسه.

(٣) أي: لابس البياض، والسراب هو ما يراه الإنسان في الهواجر في البراري كأنه ماء.

(٤) أي: راجعًا.

(٥) أي: أشد الحزن.

(٦) أي: أقبل ودنا قدومه.

أنجوَ منه بشيء أبدًا، فأجمعتُ صدقَه، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا، وكان إذا قدِم من سفرٍ بدأ بالمسجد، فركع فيه ركعتيْن. ثم جلس للناس، فلمّا فَعل ذلك جاءَه المخلَّفون وطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بِضعةً وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم؛ ووَكَلَ سرائرَهم إلى الله، حتى جئتُ، فلمّا سلَّمتُ تبسَّمَ تبسُّم المغضَب، ثم قال: «**تعال**». فجئتُ أمشي حتى جلست بين يديه.

فقال لي: «**ما خلَّفك؟**» ألم تكن قد ابتعتَ ظهرَك؟.

قال: قلتُ: يا رسول الله، إني والله لو جلستُ عند غيرك من أهل الدنيا، لَرأيتُ أني سأخرج من سخطه بعذر، ولقد أُعطِيتُ جدلًا [١]، ولكني والله لقد علمتُ لَئِن حَدَّثْتُكَ اليوم حديثَ كذبٍ ترضى به عني، لَيوشكنَّ الله أن يُسخِطَك عليَّ، ولئنْ حدَّثتُك حديثَ صدقٍ تجدُ عَلَيّ فيه، إني لأَرجو فيه عُقبى الله، والله ما كان لي عذرٌ، والله ما كنتُ قطُّ أقوى ولا أيسرَ مني حين تخلَّفتُ عنك.

قال رسول الله ﷺ: «**أمَّا هذا فقد صدق، فقمْ حتى يقضيَ الله فيك**». فقمتُ وثار رجالٌ من بني سَلَمة فاتَّبعوني، فقالوا لي: والله ما عَلِمناك أذنبتَ ذنبًا قبل هذا، لقد عجزتَ في ألا تكون اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر به إليه المخلَّفون؛ فقد كان كافيَكَ ذنبَكَ استغفارُ رسول الله ﷺ.

قال: فوالله، ما زالوا يؤنِّبونني [٢] حتى أردتُ أن أرجع إلى رسول الله ﷺ فأُكذب نفسي.

---

(١) أي: فصاحة وبراعة بحيث أخرج من عهدة ما ينسب إلىٰ إذا أردت.

(٢) أي: يلومونني أشد اللوم.

قال: ثم قلتُ لهم: هل لقي هذا معيَ من أحدٍ؟.

قالوا: نعم، لقيه معك رجلان قالا مثلَ ما قلتَ، فقيل لهما مثلُ ما قيل لك. قال: قلتُ: مَنْ هما؟.

قالوا: مُرارة ابن ربيعة العامري، وهلال بن أمية الواقفي.

قال: فذكروا لي رجلَيْن صالحَيْن قد شهِدا بدرًا، فيهما أسوة. قال: فمضيتُ حين ذكروهما لي.

قال: ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامِنا- أيها الثلاثة- من بين مَن تخلَّف عنه.

قال: فاجتنبَنَا الناسُ. وقال: تغيَّروا لنا حتى تنكرتْ لي في نفسي الأَرض، فما هي بالأرض التي أعرف، فلبثنا على ذلك خمسين ليلةً، فأمَّا صاحبايَ فاستكانا وقعدا في بُيوتهما يبكيان، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم[(١)]، فكنتُ أخرج فأشهد الصلاة وأطوف في الأسواق، ولا يكلِّمني أحد، وآتي رسولَ الله ﷺ فأُسلِّم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة، فأقول في نفسي: «هل حرَّك شفتَيْه بردِّ السلام أم لا؟»، ثم أصلِّي قريبًا منه وأسارقُه النظرَ، فإذا أقبلتُ على صلاتي نظرَ إليَّ، وإذا التفتُّ نحوَه أَعرَضَ عني، حتى إذا طال ذلك عليَّ من جفوة المسلمين، مشيتُ حتى تسوَّرتُ جدارَ حائطِ[(٢)] أبي قتادة- وهو ابن عمي وأحبُّ الناس إليَّ-، فسلَّمتُ عليه، والله ما ردَّ عليَّ السلام.

فقلتُ له: يا أبا قتادة، أنشُدكَ بالله، هل تعلمني أني أحبُّ الله

---

(١) أي: أصغرهم سناً وأقواهم.

(٢) أي: علوت جدار بستان أبي قتادة.

ورسوله؟ قال: فسكتَ، فعدتُ فناشدتُه فسكت، فعدتُ فناشدتهُ، فقال: الله ورسوله أعلم. ففاضتْ عيناي، وتولَّيتُ حتى تسوَّرتُ الجدار.

فبينما أنا أمشي في سوق المدينة، إذا نَبَطِيٌّ - من نبطِ [(١)] أهل الشام ممَّن قدِم بالطعام يبيعه بالمدينة - يقول: مَن يدلُّ على كعب بن مالك؟.

قال: فطفِقَ الناسُ يُشيرون له إلي حتى جاءني، فدفع إليَّ كتابًا من مَلِك غَسَّان - وكنت كاتبًا -، فقرأتهُ، فإذا فيه.

أمَّا بعد: فإنه قد بلغنا أنَّ صاحبَك قد جفَاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مَضْيَعةٍ، فالْحَقْ بنا نُواسِك.

قال: فقلتُ -حين قرأتها-: وهذه أيضًا من البلاء!! فتيامَمتُ بها التَّنُّورَ فسجرتُها [(٢)] بها.

حتى إذا مضتْ أربعون من الخمسين واستلبث الوحي [(٣)]، إذا رسولُ رسول الله ﷺ يأتيني، فقال: إن رسول الله ﷺ يأمُرك أن تعتزلَ امرأتك.

قال: فقلتُ: أطلِّقها أم ماذا أفعل؟

قال: لا، بل اعتزلْها فلا تَقْربنَّها.

قال: فأرسل إلى صاحبَّي بمثل ذلك.

قال: فقلتُ لامرأتي: الحقي بأهلِك، فكوني عندهم حتى يقضيَ الله في هذا الأمر.

قال: فجاءتِ امرأةُ هلال بن أُميَّة رسولَ الله ﷺ فقالت له: يا رسول

---

(١) أي: فلاجو العجم.

(٢) أي: قصدت المكان الذي يصنع به الخبز فأحرقتها.

(٣) أي: أبطأ الوحي.

الله، إن هلال بن أُمية شيخٌ ضائعٌ ليس له خادم، فهل تكْرَه أن أخدمَه؟

قال: «لا، ولكن لا يَقربنَّك».

فقالت: إنه والله ما به حركةٌ إلى شيء، ووالله ما زال يبكي منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا.

قال: فقال لي بعض أهلي: لو استأذنتَ رسول الله ﷺ في امرأتك؛ فقد أذِن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه.

قال: فقلتُ: لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ، وما يُدريني ماذا يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه فيها وأنا رجلٌ شابّ؟

قال: فلبثتُ بذلك عشرَ ليالٍ، فكَمُل لنا خمسون ليلةً من حين نُهي عن كلامنا.

قال: ثم صلَّيتُ صلاة الفجر صباحَ خمسين ليلةً على ظهر بيتٍ من بيوتنا، فبينا أنا جالس على الحال التي ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ منا: قد ضاقت عليَّ نفسي وضاقت عليّ الأرض بما رحُبتْ [١]، سمعتُ صوتَ صارخٍ أوفى على سلْع [٢]، يقول بأعلى صوته: يا كعب بن مالك، أبشرْ.

قال: فخررتُ ساجدًا، وعرفتُ أنْ قد جاء فرج.

قال: فآذنَ [٣] رسولُ الله ﷺ الناسَ بتوبة الله علينا حين صلَّى صلاة الفجر، فذهب الناس يبشِّروننا، فذهب قِبَلَ صاحبَيَّ مبشِّرون، ورَكَضَ رجلٌ إليَّ فرسًا، وسعى ساعٍ من «أسلم» قِبلي، وأوفى الجبلَ، فكان الصوت

---

(١) أي: بما اتسعت.

(٢) أي: صعده وارتفع عليه، وسَلْع جَبلٌ بالمدينة معروف.

(٣) أي أعْلَمَ الناس.

أسرع من الفرس، فلمّا جاءني الذي سمعتُ صوتَه يبشِّرني، نزعتُ له ثوبَيَّ. فكسوتهما إيَّاه ببشارته، والله ما أملك غيرهما يومئذ، واستعرت ثوبيْن فلبستُهما، فانطلقتُ أتأمَّم [١] رسولَ الله ﷺ، يتلقَّاني الناسُ فوْجًا فوجًا، يُهنِّئوني بالتوبة ويقولون: لِتهنئك توبةُ الله عليك. حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسول الله ﷺ جالسٌ في المسجد وحوله الناس، فقام طلحة ابن عُبيد الله يُهرول حتى صافحني وهنَّأني، والله ما قام رجل من المهاجرين غيره- فكان كعب لا ينساها لطلحة-.

قال كعب: فلمَّا سلَّمتُ على رسول الله ﷺ وهو يبرقُ وجهُه من السرور ويقول: «ابشرْ بخير يومٍ مرَّ عليك منذ ولدتك أُمُّك».

قال: فقلتُ: أمن عندك يا رسول الله، أم من عند الله؟ فقال: «لا، بل من عند الله».

وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُهُ، كأنَّ وجهَه قطعةُ قمر. قال: وكنا نعرف ذلك.

قال: فلمَّا جلستُ بين يديْه قلتُ: يا رسول الله، إنَّ من توبتي أن أنخلعَ من مالي صدقةً إلى الله وإلى رسوله ﷺ. فقال رسول الله ﷺ: «أمسكْ بعضَ مالِكَ فهو خيرٌ لك».

قال: فقلتُ: فإني أُمسِكُ سهمي الذي بخيبر.

قال: فقلتُ: يا رسول الله، إن الله إنما أنجاني بالصدق، وإنَّ من توبتي إلاَّ أُحَدِّثَ إلاَّ صِدقًا ما بقيتُ.

قال: فوالله ما علمتُ أنَّ أحدًا من المسلمين أبلاه الله في صدق

---

(١) أي: قصده.

الحديث، منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، أحسنَ مما أبلاني الله به. والله ما تعمدتُ كِذْبةً منذ قلتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومي هذا، وإني لأرجو أن يحفظني الله فيما بقي.

قال: فأنزل الله عزَّ وجل: ﴿ لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ ..﴾ حتى بلغ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [التوبة: ١١٧- ١١٩].

قال كعبٌ: والله ما أنعم الله عليَّ من نعمة قطُّ، بعد إذ هداني الله للإسلام، أعظمَ في نفسي من صدقي رسولِ الله ﷺ ألاَّ أكونَ كذبتُه فأهلِك كما هلَك الذين كذبوا. إن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحي شرَّ ما قال لأحد؛ فقال الله: ﴿ سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا۟ عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾ ﴾ [التوبة].

قال كعب: كنا خُلِّفنا- أيَّها الثلاثة- عن أمْرِ أولئك الذين قَبِل منهم رسول الله ﷺ حين حلَفوا له، فبايعهم واستغفر لهم، وأرجأ رسولُ الله ﷺ أمْرنا حتى قضى الله فيه، فبذلك قال الله عزَّ وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذي ذَكَرَ الله مِمَّا خُلِّفنا تخلُّفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفه إيَّانا، وإرجاؤه أمْرنا عمَّن حلَف له واعتذر إليه

فقَبل منه»(١).

توبة امرأة من جهينة رضي الله عنها:

• هي امرأة تأتي معترفةً بذنبها تريد أن تتطهر من ذنبها وتَلْقى الله ولا تَبِعَةَ عليها، فتَجُودُ بنفسها لله سبحانه وتعالى، وتأتي معترفةً بالذنب إلى رسول الله ﷺ؛ كي يقيم عليها الحد ويهدأ بالها ويسكن خاطرها، ولا تَهُمَّنَّها الملابساتُ المحيطة بها ولا يُهِمُّنَّها حَمْلُها الذي في بطنها، ولا وليدها بعد أن وضعته، تلك هي الغامدية، وهذه هي قصتها التي يقشعر لها الجلد ويرق لها القلب ويقف معها الفؤاد وَجِلًا.

وها هي قصتها كما في «الصحيح»(٢) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما: «أنَّ امرأةً من جهينةَ أتتْ نَبيَّ الله ﷺ، وهي حُبْلَى مِنَ الزنا، فقالت: يا نبيَّ الله، أصبتُ حدًا(٣) فَأَقِمْهُ عَلي، فدعا نبيُّ الله ﷺ وَلِيَّها، فقال: «أَحْسِنْ إلَيهَا، فَإذا وَضَعَتْ فائتني بِها»، ففعل، فَأَمَر بها نبيُّ الله ﷺ، فَشُدَّتْ عليها ثيابَها، ثم أَمر بها فَرُجمتْ ثم صَلَّى عليها، فقال له عمر رضي الله عنه: تُصلِّي عليها يا نبي الله وقد زنت؟! فقال: «**لَقَدْ تَابَتْ تَوبَةً، لو قُسمتْ بينَ سَبْعين من أهلِ المَدينة لَو سعتْهُم، وَهَلْ وَجَدْتَ تَوْبَةً أفضَلَ مِنْ أنْ جادتْ بِنَفْسِهَا لله تَعَالَى؟!**».

---

(١) أخرجه البخاري (٨/ ٣٤٢- ٣٤٣) «الفتح»، ومسلم (١٧/ ٨٧- ٩٨) النووي والسياق له.

(٢) «صحيح مسلم» (ح١٦٩٦).

(٣) أي: ارتكبت أمرًا يُوجب الحَدَّ.

ورجل من الصحابة رضي الله عنه:

• عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أَتَى رسولَ الله ﷺ رجلٌ من الناس وهو في المسجد، فناداه: يا رسول الله، إني زَنيتُ -يريد نفسه-، فأعرض عنه النبي ﷺ، فتنحَّى لشقِّ وجْهِهِ الذي أعْرض قِبْله، فقال: يا رسول الله، إنِّي زَنيتُ، فَأعرضَ عنه؛ فجاءَ لشقِّ وَجْهِ النبي ﷺ الذي أَعْرَض عنه، فلمَّا شَهِدَ على نفْسِهِ أربعَ شهاداتٍ دعاه النبيُّ ﷺ فقال: «**أبِكَ جُنونٌ؟**» قال: لا يا رسول الله ﷺ. فقال: «**أَحْصَنْتَ؟**» قال: نَعم، يا رسول الله قال: «**اذْهَبُوا فَارْجُمُوهُ**»[1].

توبة ماعز بن مالك وتوبة الغامِدِيَّة رضي الله عنهما:

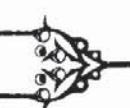
• عن بُريدة الأسلمي رضي الله عنه قال: جاء ماعزُ بن مالكٍ إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، طهِّرني. فقال: «**ويحك[2]!!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ إليه**». قال: فرجع غيرَ بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله، طهِّرني. فقال رسول الله ﷺ: «**ويحك!!! ارجعْ فاستغفر الله وتبْ ليه**». قال: فرجع غيرَ بعيد، ثم جاء فقال: يا رسول الله، طهِّرني. فقال النبي ﷺ مثلَ ذلك، حتى إذا كانت الرابعة قال له رسول الله ﷺ: «**فيمَ أُطهِّرك؟**». فقال: من الزنى. فسأل رسول الله ﷺ: «**أَبِهِ جنون؟**». فأُخبر أنه ليس بمجنون. فقال: «**أشَرِبَ خمرًا؟**». فقام رجل فاستنكهه[3]، فلم يجد منه ريحَ خمر. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**أزنيتَ؟**» فقال: نعم. فأمر به فُرجم، فكان الناس فيه

---

(١) رواه البخاري (حديث ٦٨٢٥)، ومسلم (ص١٣١٨).

(٢) «ويحك» قال ابن الأثير في «النهاية»: «ويح»: كلمة ترحُّم وتوجُّع، تُقال لمن وقع في هلكة لا يستحقها.

(٣) «فاستنكهه»: أي: شمَّ رائحة فمه، طلب نكهته بشمِّ فمه، والنكهة رائحة الفم.



فرقتَيْن: قائل يقول: لقد هلَك. لقد أحاطت به خطيئته. وقائل يقول: ما توبة أفضل من توبة ماعز؛ إنه جاء إلى النبي ﷺ فوضع يده في يده، ثم قال: اقتلني بالحجارة. قال: فلبثوا بذلك يومين أو ثلاثة، ثم جاء رسول الله ﷺ وهم جلوس، فسلَّم ثم جلس، فقال: **«استغفروا لماعز بن مالك»**. قال: فقالوا: غفر الله لماعز بن مالك. قال: فقال رسول الله ﷺ: **«لقد تاب توبة لو قُسِمَتْ بين أمَّة لوسِعَتْهم»**.

قال: ثم جاءته امرأةٌ من غامد [1] من الأزد، فقالت: يا رسول الله، طَهِّرني فقال: **«وَيْحَكَ! ارْجعِي فاسْتَغفري الله وتوبي إليه»**، فقالت: أراك تريد أن تَرُدَّني كما ردَّدتَ ماعز بن مالك قال: **«وَمَا ذاكَ؟»** قالت: إنها حُبْلَى من الزنى [2]، فقال: **«آنت؟»**، قالت: نعم. فقال لها: **«حتَّى تَضَعِي مَا في بَطْنك»**، قال: فكَفَلها رجلٌ من الأنصار [3] حتى وضعت، قال: فأتى النبي ﷺ فقال: «قد وَضَعت الغامديةُ». فقال: **«إذًا لا نَرجُمُها ونَدَعُ وَلَدَها صَغيرًا ليس لَهُ من يُرضعُهُ»**، فقَامَ رَجُلٌ مِنَ الأنصارِ فَقالَ: إليَّ رَضَاعُه [4] يا نبيَّ الله، قال: **«فَرجَمَها»** [5]. وللحديث رواية أخرى عند مسلم أيضًا، فيها:

---

(١) «غامد»: بطن من «جهينة».

(٢) «إنها حبلىٰ من الزنىٰ»: أرادت: إني حبلىٰ من الزنىٰ، فعبَّرت عن نفسها بالغيبة.

(٣) «فكفلها رجل من الأنصار»: أي: قام بمؤنتها ومصالحها، وليس هو من الكفالة التي هي بمعنىٰ الضمان؛ لأن هذا لا يجوز في الحدود التي لله تعالىٰ.

(٤) «إليَّ رضاعة»: إنما قاله بعد الفطام، واراد بالرضاعة: كفايته وتربيته، وسماه رضاعًا مجازًا.

(٥) رواه مسلم (١٦٩٥).

• أن ماعز بن مالك الأسلمي أتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، إني ظلمتُ نَفْسي وزنيتُ، وإني أريد أن تُطهِّرني، فردَّه، فلما كان من الغد أتاه فقال: يا رسول الله، إني قد زنيتُ، فردَّه الثانية، فأرسل رسولُ الله ﷺ إلى قومه فقال: «أَتعلَمُونَ بِعَقْلِهِ بَأْسًا تُنْكِرونَ مِنهُ شيئًا؟»، فقالوا: ما نَعلمُه إلَّا وَفِيَّ العَقلِ، من صالحينا -فيما نرى-، فأتاه الثالثة فأرسل إليهم أيضًا، فسأل عنه فأخبروه: أنه لا بأس به ولا بعقله، فلما كان الرابعة حُفِرَ له حُفرةٌ ثم أمر به فرجم.

• قال: فجاءت الغامدية فقالت: يا رسول الله، إني قد زنيت فطهِّرني. وأنه ردَّها، فلما كان الغد، قالت: يا رسول الله، لِمَ تردُّني؟ لعلَّك أن تردَّني كما رددتَ ماعزًا، فوالله إني لحُبْلى. قال: «إمَّا لا فاذهبي [1] حتى تلدي». فلمَّا ولدتْ أتته بالصبي في خِرقةٍ، قالت: هذا قد ولدتُه. قال: «فاذهبي فأرضعيه حتى تَفطميه». فلما فطمتْه أتته بالصبي في يده كِسْره خبز، فقالت: هذا يا نبيَّ الله قد فطمتُه، وقد أكل الطعام. فدفعَ الصبيَّ إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحُفر لها إلى صدْرها، وأمر الناس فرجموها. فيُقْبِلُ خالد [2] بن الوليد بحجر فرمى رأسها، فتنضَّح [3] الدم على وجهِ خالد فسبَّها، فسمع نبيُّ الله ﷺ سبَّه إيَّاها؛ فقال: «مهلًا يا خالد، فوالذي نفسي

---

(١) «إما لا فاذهبي»: هو بكسر الهمزة من «إما»، وتشديد الميم، وبالإمالة. الأصل: إن ما، فأدغمت النون في الميم وحذف فعل الشرط فصار إمَّا لا، ومعناه: إذا أبيتِ أن تستري على نفسك وتتوبي وترجعي عن قولك فاذهبي حتى تلدي، فترجمين بعد ذلك.

(٢) فيقبل خالد: حكاية للحال الماضية، أي: .

(٣) «فتنضح» قال النووي: رُوي بالحاء المهملة والمعجمة، والأكثرون على المهملة، ومعناه: ترشش وانصب.

بيده، لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكسٍ[١] لَغُفر له». ثم أمر بها فصلى عليها ودُفنتْ».

أصحاب الغار:

• عن ابن عمر رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «بينَما ثلاثةُ نفر يَتمشُّونَ أخذَهُمُ المَطَرُ، فأووا إلى غَار[٢] في جَبَل، فانحطَّتْ على فَمِ غَارهم صَخْرةٌ من الجبَلِ، فانطَبَقتْ عليهم، فقال بعضهم لبعض: انظُروا أعمالًا عملتُمُوها صالحَةً لله، فادعُوا الله تعالى بها، لعلَّ الله يُفرِجُها عنكُمْ، فقال أحدهُمُ: اللهمَّ، إنَّهُ كان لي والدَانِ شيخَان كَبيران، وامرأَتي، ولي صبْيةٌ صغَارٌ أَرْعَى عليهم، فإذا أَرحْتُ عليهم[٣] حَلَبْتُ، فبدأت بوالديَّ فسقيْتُهُمَا قبْلَ بَنيَّ، وأنَّه نَأى بي ذاتَ يوم الشَّجر[٤]، فلم آت حتى أمسيتُ فوجَدْتُهمَا قد نَامَا، فحَلَبْتُ كما كنتُ أحلب فجئْتُ بالحلاب[٥]، فَقُمْتُ عندَ رؤسهما، أَكْرَهُ أنْ أُوقِظَهُمَا من نَومِهمَا، وأَكْرَهُ أنْ أَسْقِيَ الصبْيَةَ قَبْلهُمَا، والصبْيَةُ يتضاغُونَ[٦] عِندَ قَدمي، فَلم يَزلْ ذلك دَأْبي[٧] ودَأْبُهُم حتَّى طَلعَ

---

(١) المكْس: الجِباية.

(٢) «غار»: الغار: الثقب في الجبل.

(٣) «فإذا أرحت عليهم»: أي: إذا رددت الماشية من المرعى إليهم، وإلى موضع مبيتها، وهو مُراحها، يقال: أرحتُ الماشية وروحتها، بمعنى.

(٤) «نأى بي ذات يوم الشجر»: وفي بعض النسخ: «ناء بي»، هما لغتان وقراءتان، ومعناه بعد، والنأي البعد.

(٥) «بالحلاب»: الإناء الذي يحلب فيه، يَسعُ حلبةَ ناقةٍ، ويقال له: المحلب. قال القاضي: وقد يريد بالحلاب هنا اللبن المحلوب.

(٦) «يتضاعون» أي: يصيحون ويستغيثون من الجوع.

(٧) «فلم يزل ذلك دأبي» أي: حالي اللازمة.

الفَجرُ، فإن كُنْت تعْلَمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغَاءَ وجهك، فافرجْ لنا منها فُرْجةً، نرى منها السماءَ، ففرَّجَ اللهُ منها فُرجةً فرأوا منها السماءَ.

وقال الآخرُ: اللهمَّ، إنَّهُ كانت لي ابنَةُ عمٍّ أُحببْتُها كأَشَدِّ ما يُحبُّ الرِّجَالُ النساء، وطلبتُ إليها نفسها، فأبتْ حتَّى آتيها بمئة دينارٍ، فتعبْتُ حتَّى جَمعتُ مئة دينَار، فجْئتُها بها، فلمَّا وقعتُ بين رجلَيها[1] قالت: يا عبدَ الله، اتَّقِ الله، ولا تَفْتَحُ الخاتمَ إلَّا بحقِّه[2]، فقُمتُ عنها، فإنْ كنتَ تعلم أنِّي فعلتُ ذلك ابتغَاءَ وَجْهِكَ، فافرج لنا منها فُرجةً. ففرِّجَ لهم.

وقالَ الآخَرُ: اللهمَّ،إنِّي كنتُ استأجَرْتُ أجيرًا بفَرَق أرزٍّ[3]، فلمَّا قَضَى عَمَلهُ قال: أَعطني حقِّي، فعرضْتُ عليه فَرْقَهُ فَرغَبَ عنهُ[4]، فلمْ أَزلْ أَزْرَعُهُ حتَّى جَمَعْتُ منهُ بقَرًا ورعاءهَا، فجاءَني فقال: اتَّقِ اللهَ ولا تَظلمْني حقِّي، قلتُ: اذهب إلى تلك البقرِ ورعائها فخُذهَا، فقال: اتَّق الله، ولا تستهزئُ بي، فقُلتُ: إنِّي لا أستهزئُ بك، خُذ ذلك البقر ورعاءَها، فأخذهُ فذهب به، فإنْ كُنْت تعْلَمُ أنِّي فعلتُ ذلك ابتغاءَ وجْهِكَ، فافرُجْ لنا ما بقيَ، ففرَّجَ اللهُ ما بَقِي»[5].

فلله درُّ الرجل الذي قعد بين رجليْ ابنة عمه كي يزني بها، ثم قام عنها

---

(١) «فلما وقعت بين رجليها»، أي: جلست مجلس الرجل للوقاع.

(٢) «لا تفتح الخاتم إلا بحقه»: «الخاتم» كناية عن بكارتها. وقولها: «بحقه» أي: بنكاح، لا بزنىٰ.

(٣) بفرق: بفتح الراء وإسكانها، لغتان، الفتح أجود وأشهر، وهو: إناء يسع ثلاثة آصع.

(٤) «فرغب عنه»، أي: كرهه وسخطه وتركه.

(٥) البخاري (٣٤٦٥)، ومسلم (٢٧٤٣).

وتركها وانصرف خوفًا من الله عَزَّ وَجَلَّ.

توبة زاذان الكندي:

□ روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه مرَّ ذات يوم في موضع من نواحي الكوفة، فإذا فتيان فسَّاق قد اجتمعوا يشربون [(١)]، وفيهم مغنٍ يُقال له: زاذان يضرب ويُغنِّي، وكان له صوت حسن.

فلما سمع ذلك عبد الله قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله! فجعل الرداء على رأسه ومضى، فسمع زاذان قوله فقال: من كان هذا؟ قالوا: عبد الله بن مسعود -صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم-. قال: وأي شيءٍ قال؟ قالوا: إنه قال: ما أحسن هذا الصوت لو كان بقراءة كتاب الله تعالى. فقام وضرب بالعُود على الأرض فكسره، ثم أسرع فأدركه، وجعل المنديل في عنق نفسه وجعل يبكي بين يدي عبد الله بن مسعود، فاعتنقه عبد الله بن مسعود، وجعل يبكي كل واحد منهما، ثم قال عبد الله: كيف لا أحب من قد أحبه الله عَزَّ وَجَلَّ فتاب إلى الله عَزَّ وَجَلَّ من ذنوبه؛ ولازم عبد الله بن مسعود حتى تعلم القرآن، وأخذ حظًا من العلم [(٢)] حتى صار إمامًا في العلم، وروى عن عبد الله بن مسعود وسلمان وغيرهما[(٣)].

توبة أبي عبد رب:

كان أبو عبد رب رَحِمَهُ اللهُ من أكثر أهل دمشق مالًا، فخرج إلى

---

(١) أي: الخمر.

(٢) حظًّا: قدْرًا.

(٣) «كتاب التوابيين» لابن قدامة المقدسي (ص١٢٩- ١٣٠)- دار الفجر.

أذربيجان في تجارة؛ فأمسى إلى جانب مرج ونهر فنزل به. قال أبو عبد رب: فسمعت صوتًا يكثر حمد الله في ناحية من المرج، فاتبعته. فوافيت رجلًا في حفير [1] من الأرض ملفوفًا في حصير. فسلمت عليه، وقلت: من أنت يا عبد الله؟ قال: رجل من المسلمين. قال: قلت: ما حالك هذه؟ قال: حال نعمة يجب عليّ حمد الله فيها. قال: قلت: كيف وإنما أنت في حصير؟ قال: وما لي لا أحمد الله أن خلقني فأحسن خلقي وجعل مولدي ومنشئ في الإسلام، وألبسني العافية في أركاني، وستر عليّ ما أكره ذكره أو نشره؟! فمن أعظم نعمة ممن أمسى في مثل ما أنا فيه؟ قال: قلت: رحمك الله! إن رأيت أن تقوم معي إلى المنزل فإنا نزول على النهر. قال: ولمه؟ قلت: لتصيب من الطعام ولنعطيك من يغنيك عن لبس الحصير. قال: ما بي حاجة.

قال الوليد: فحسبت أنه قال: إنَّ لي في أكل العشب كفاية عما قال أبو عبد رب، قال: فأردته على أن يتبعني، فأبى، قال: ما لي به من حاجة.

قال أبو عبد رب: فانصرفت وقد تقاصرتْ إليَّ نفسي ومقتُّها أني لم أخلِّف بدمشق رجلًا في الغنى يكاثرني وأنا ألتمس الزيادة فيه. وقلت: اللهم! إني أتوب إليك من سوء ما أنا فيه. قال: فبت ولم يعلم إخواني بما قد أجمعت به. فلمَّا كان من السَّحر رحلوا كنحو من رحيلهم فيما مضى؛ وقدَّموا إلى دابتي فركبتها وصرفتها إلى دمشق. وقلت: ما أنا بصادق التوبة إن أنا مضيت في متجري هذا، فسألني القوم فأخبرتهم؛ وعاتبوني على المضي فأبيت.

---

(١) حفير: حُفْرة.

قال ابن جابر: فلما قدم تصدق بصامت ماله [١]، وتجهز به في سبيل الله. قال ابن جابر: فحدثني بعض إخواني قال: ما كست صاحب عباءة في عباءة، أعطيته ستة وهو يقول: سبعة. فلمّا أكثرت قال: ممن أنت؟ قلت: من أهل دمشق. قال: ما تشبه شيخًا وفد عليَّ أمس، يقال له: أبو عبد رب اشترى مني سبعمئة كساء بسبعة سبعة؛ ما سألني أن أضع له درهمًا، فسألني أن أحملها له، فبعثت أعواني، فما زال يفرقها بين فقراء الجيش، فما دخل إلى منزله منها بكساء.

قال ابن جابر: وباع عقدة وتصدق بها، وباع داره بمال عظيم وفرَّقه وكان مع ذلك موته. فما وجدوا منها إلَّا قدر ثمن الكفن. وكان يقول: والله لو أن نهركم هذا -يعني بردي- سال ذهبًا وفضة، من شاء خرج إليه فأخذ منه، ما خرجت إليه؛ ولو قيل: من مسّ هذا العمود مات، لسرني أن أقوم إليه شوقًا إلى الله وإلى رسوله» [٢].

توبة وليِّ الله إبراهيم بن أدهم:

□ عن إبراهيم بن بشار خادم إبراهيم بن أدهم قال:

قلتُ: يا إسحاق! كيف كان أوائل أمرك؟ قال: كان أبي من أهل «بلْخ»، وكان من ملوك خراسان، وحبّب إلينا الصيد، فخرجت راكبًا فرسي وكلبي معي، فبينما أنا كذلك، ثار أرنب أو ثعلب، فحركتُ فرسي فسمعت نداءً من ورائي: ليس لذا خُلقتَ ولا بذا أمرتَ! فوقفت أنظر يمنة ويسرة، فلم أرَ أحدًا فقلت: لعن الله إبليس! ثم حرت فرسي فأسمع

---

(١) «كتاب التوابين» (ص١٣٨- ١٣٩).

(٢) «كتاب التوابين» (ص١٣٨- ١٣٩).

نداءً أجهر من ذلك: يا إبراهيم! ما لذا خُلقت ولا بذا أمرت! فوقفت، فقلت: أنبَهْتَ! أنبَهْت جاءني نذير من رب العالمين، والله لا عصيت الله بعد يومي هذا ما عصمني ربي. فرجعت إلى أهلي، ثم جئت إلى أحد رعاة أبي، فأخذت منه جبّةً وكساءً، وألقيت ثيابي إليه، ثم اقبلت إلى العراق، أرضٌ ترفَعُني، وأرضٌ تَضَعُني، حتى وصلت إلى العراق، فعملت بها أيامًا، فلم يصف لي منا -يعني: الحلال- فسألت بعض المشايخ، فقال لي: إذا أردت الحلال فعليك ببلاد الشام، فَصرتُ إلى بلاد الشام، فسرت إلى مدينة يُقال لها: المنصورة -وهي المِصِّيصة-، فعملت بها أيامًا فلم يصفُ لي شيء من الحلال، فسالت بعض المشايخ. فقالوا لي: إن أردت الحلال الصافي، فعليك بطرسوس، فإن فيها المباحات والعمل الكثير، فتوجهت إلى طرسوس فعملت بها أيامًا أنظر البساتين وأحصد الحصاد. فبينا أنا قاعد على باب البحر، جاءني رجل فاكتراني أنظر له بستانه. فكنت في البستان أيامًا كثيرة، فإذا خادم قد أقبل ومعه أصحابه. فقعد في مجلسه، ثم صاح: يا ناطور! فقلت: هو ذا أنا. فقال: اذهب فأتنا بأكبر رمان تقدر عليه وأطيبه، فذهبتُ فأتيتُه بأكبر رمان، فأخذ الخادم رمانة فكسرها، فوجدها حامضة، فقال: يا ناطور! أنت في بستاننا منذ كذا وكذا، تأكل فاكهتنا وتأكل رماننا، ولا تعرف الحلو من الحامض؟

قال إبراهيم: قلتُ: والله ما أكلتُ من فاكهتك شيئًا ولا أعرف الحلو من الحامض، فأشار الخادم إلى أصحابه، فقال: أما تسمعون كلام هذا؟ أتَراكَ لو أنك إبراهيم بن أدهم ما زاد على هذا؟ فانصرف، فلما كان من الغد ذكر صفتي في المسجد، فعرفني بعض الناس، فجاء الخادم ومعه عَنَق من الناس، فلما رأيته قد أقبل مع الناس اختفيتُ خلف الشجر والناس



داخلون، فاختلطتُ معهم وهم داخلون وأنا خارج هارب، فهذا كان أوائل أمري وخروجي من طرسوس إلى بلاد الرمال»(١).

توبة شقيق البلخي رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ عن علي بن محمد بن شقيق: «كان لجدي ثلثمئة قرية، ولم يكن له يوم مات كفنٌ يُكفَّن فيه، قَدَّمَهُ كلَّه بين يديه، قال: وكان خرج إلى بلاد الترك لتجارة -وهو حَدَثٌ- إلى قوم يقال لهم: الخلوخيّة يعبدون الأصنام. فدخل إلى بيت أصنامهم، وعالِمُهم قد حلق رأسه ولحيته ولبس ثيابًا حمرًا أرجوانية، فقال له شقيق: إن هذا الذي أنت فيه باطل، ولهؤلاء ولك ولهذا الخلق خالقٌ صانع ليس كمثله شيء، له الدنيا والآخرة، قادر على كل شيء، رازق كل شيء. فقال له الخادم: ليس يوافق قولك فعلك. فقال له شقيق: كيف ذلك؟ قال: زعمت أن لك خالقًا قادرًا على كل شيء، وقد تعنيَّت إلى هاهنا لطلب الرزق، ولو كان كما تقول كان الذي يرزقك هاهنا يرزقك ثَمَّ فتربح العناء.

قال شقيق: فكان سبب زهدي كلام التركي. فرجع فتصدق بجميع ما ملك وطلب العلم»(٢).

توبة الفُضَيْل بن عياض رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ قال: «كان الفضيل يقطع الطريق وحده. فخرج ذات ليلة ليقطع الطريق، فإذا هو بقافلة قد انتهت إليه ليلًا، فقال بعضهم لبعض: اعدلوا بنا إلى هذه القرية فإن أمامنا رجلًا يقطع الطريق يُقال له: الفضيل. قال:

---

(١) «حلية الأولياء» (٧/ ٣٦٨- ٣٦٩)، و«التوابين» (ص١٠١- ١٠٢).

(٢) «كتاب التوابين» (ص١٠٤- ١٠٥).

فسمع الفضيل، فأرعد، فقال: ا قوم! أنا الفضيل، جوزوا، والله لأجتهدنَّ أن لا أعصي الله أبدًا! فرجع عما كان عليه. وروي من طريق أخرى أنه أضافهم تلك الليلة؛ وقال أنتم آمنون من الفضيل، وخرج يرتاد لهم علفًا، ثم رجع فسمع قارئًا يقرأ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦]. قال: بلى والله قد آن. فكان هذا مبتدأ توبته»[(١)].

□ وفي رواية أنه كان شاطرًا، وكان يتعشَّقُ الجواري وبينا هو يتسلَّق الدار إلى معشوقته سمع متهجِّدًا يتلو قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦] فقال: بلى والله قد آن..» وحسنت توبة الفضيل وصار من كبار أولياء هذه الأمة، حتى كان ابن عيينة وابن المبارك يُقبِّلان يده.

□ ويقول فيه ابن المبارك: «كنتُ كلما قسى قلبي نظرتُ إلى وجه الفضيل يجدِّد لي الحزن، وأمقت نفسي»، وقال: «إذا مات الفُضيل ارتفع الخوف من الأرض».

□ وقال إبراهيم بن الأشعث: «سمعت فضيلًا ليلة وهو يقرأ سورة محمد ﷺ ويبكي ويرددّ هذه الآية: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾ ﴾ [محمد]. وجعل يقول: ﴿ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴾! ويردد ويقول: وتبلو أخبارنا! إن بلوتَ أخبارنا فضحتنا وهتكت أستارنا! إن بلوت أخبارنا أهلكتنا وعذبتنا! وسمعته يقول: تزينت للناس وتصنّعت لهم وتهيأت لهم، ولم تزل ترائي حتى عرفوك فقالوا: رجل صالح! فقضوا لك الحوائج، ووسعوا لك في المجلس، وعظَّموك، خيبة

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٣).

لك؛ ما أسوأ حالك إن كان هذا شأنك! وسمعته يقول: إن قدرت أن لا تُعرف فافعل؛ وما عليك أن لا تعرف، وما عليك إن لم يُثنَ عليك، وما عليك أن تكون مذمومًا عند الناس إذا كنت عند الله محمودًا»[1].

توبة بشر بن الحارث الحافي إمام أهل الزهد والورع:

□ كان الإمام أحمد بن حنبل رَحِمَهُ ٱللَّهُ إذا سُئل عن مسألة من مسائل الزهد والورع قال: «أتسألوني عن الزهد والورع وفيكم بشر؟».

□ وقال: «من بيتهم –أي: بيت بشر– خرج الورع».

□ قال محمد بن الدينوري يقول: «سعت بشر بن الحارث وسُئِلَ: ما كان بدء أمرك؛ لأن اسمك بين الناس كأنه اسم نبيّ؟ قال: هذا من فضل الله، وما أقول لكم؟ كنت رجلًا عُيَّارًا صاحب عصبية، فجزت يومًا، فإذا أنا بقرطاس في الطريق، فرفعته فإذا فيه: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١﴾. فمسحته وجعلته في جيبي. وكان عندي درهمان ما كنت أملك غيرهما. فذهبت إلى العطارين فاشتريت بهما غالية. ومسحته في القرطاس. فنمت تلك الليلة؛ فرأيت في المنام كأن قائلًا يقول: يا بشر بن الحارث! رفعت اسمنا عن الطريق وطيّبته، لأُطيِّبنَّ اسمك في الدنيا والآخرة! ثم كان ما كان.

وحُكي أن بشرًا كان في بزمن لهوه في داره، وعنده رفقاؤه يشربون ويطيبون. فاجتاز بهم رجل من الصالحين، فدق الباب. فخرجت إليه جارية، فقال: صاحب هذه الدار حر أو عبد؟ فقالت: بل حرّ! فقال: صدقت، لو كان عبدًا لاستعمل أدب العبودية وترك اللهو والطرب.

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٣).

فسمع بشر محاورتهما فسارع إلى الباب حافيًا حاسرًا وقد وليَّ الرجل. فقال للجارية: ويحك! من كلمك على الباب؟ فأخبرته بما جرى. فقال: أي ناحية أخذ الرجل؟ فقالت: كذا، فتبعه بشر حتى لحقه؛ فقال له: يا سيدي! أنت الذي وقفت بالباب وخاطبت الجارية؟ قال: نعم. قال: أعد علي الكلام. فأعاده عليه. فمرغ بشر خدَّيه على الأرض وقال: بل عبدٌ عبدٌ! ثم هام على وجهه حافيًا حاسرًا حتى عُرف بالحفاء. فقيل له: لم لا تلبس نعلًا؟ قال: لأني ما صالحني مولاي إلَّا وأنا حافٍ، فلا أزول عن هذه الحالة حتى الممات»[1].

□ وعن فاطمة بنت أحمد أخت أبي عليّ الروذباري، قالت: «كان ببغداد عشرة فتيان معهم عشرة أحداث. فوجهوا واحدًا من الأحداث في حاجة لهم؛ فأبطأ، فحردوا عليه. فجاء وهو يضحك، وبيده بطيخة. فقالوا له: تبطئ وتجيء وأنت تضحك؟! فقال: جئتكم بأعجوبة؟ وضع بشر يده على هذه البطيخة فاشتريتها بعشرين درهمًا. فأخذ كل واحد منهم يقبِّلها ويضعها على عينه. فقال واحد منهم: بأي شيء بلغ بشر هذه المرتبة؟ فقالوا: بالتقوى فقال: هو يُشهدكم أنه تائب إلى الله تعالى، فقال القوم كلُّهم مثله. ويقال: إنهم خرجوا إلى طرسوس فاستُشهدوا كلهم -رحمة الله عليهم-».

□ أنبأ الإمام الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السِّلَفي قال: أنا أبو الحسين بن الطيوري، أنا أبو القاسم عبد العزيز بن أحمد بن الفضل، أنا أبو الحسن علي ابن عبد الله بن الحسن بن جهضم، ثنا علي بن هارون، ثم

---

(١) «كتاب التوابين» (ص١٣٥).

محمد بن مخلد قال أبو الفتح بن مخرق: «تعلق رجل بامرأة من بنات الشام فتعرّض لها بيده سكين، لا يدنو منه أحد إلَّا عقره، وكان الرجل شديد البدن. فبينا الناس كذلك، والمرأة تصيح من يده، إذ مرّ بشر بن الحارث؛ فدنا منه وحك كتفه بكتف الرجل. فوقع الرجل إلى الأرض، ومضى بشر. فدنوا من الرجل وهو يرشح عرقًا كثيرًا؛ ومضت المرأة بحالها. فسألوه: ما حالك؟ فقال: ما أدري، ولكني حاكني شيخ، وقال: إن الله ناظر إليك وإلى ما تعمل! فضعفت لقوله قدمي وهبته هيبة شديدة، لا أدري من ذاك الرجل. فقالوا له: ذاك بشر بن الحارث. فقال: واسوءتاه! كيف ينظر إليّ بعد اليوم؟ وحُمَّ الرجل من يومه، ومات اليوم السابع»[(١)].

توبة أبي محمد حبيب العجمي أو الفارسي صاحب المكرمات ومجاب الدعوات:

كان رَحِمَهُ اللَّهُ مرابية وكان إذا مرّ بالشارع قال الصبيان: هذا أبو محمد حبيب العجمي المرابي.

كان سبب إقبال حبيب أبي محمد على الآجلة وانتقاله عن العاجلة حضوره مجلس الحسن فوقعت موعظته في قلبه، فخرج عما كان يتصرف فيه ثقة بالله ومكتفيًا بضمانه، فاشترى نفسه من الله، فتصدق بأربعين ألف درهم في أربع دفعات: تصدق بعشرة ألاف درهم في أول النهار، فقال: يا رب! قد اشتريتُ نفسي منك بهذا، ثم أتبعها بعشرة آلاف أخرى، فقال: هذه شكرًا لما وفَّقتني له؛ ثم أخرج عشرة آلاف أخرى فقال: يا رب! إن لم تقبل مني الأولى والثانية فاقبل مني هذه؛ ثم تصدق بعشرة آلاف أخرى،

---

(١) المصدر السابق (ص١٣٦).

فقال: يا رب! إن قبلت مني الثالثة فهذه شكرًا لها»[١].

توبة مالك بن دينار رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ روي عن مالك بن دينار أنه سئل عن سبب توبته، فقال: «كنت شرطيًّا وكنت منهمكا على شرب الخمر، ثم إنني اشتريتُ جارية نفيسة؛ ووقعت مني أحسن موقع، فولدت لي بنتًا. فشغفتُ بها؛ فلما دبت على الأرض ازدادت في قلبي حبًا، وألفتني وألفتها. قال: فكنت إذا وضعتُ المسكر بين يديَّ جاءت إليَّ وجاذبتني عليه وهرَقته من ثوبي، فلما تم لها سنتان ماتت فأكمدني حزنها. فلما كانت ليلةُ النصف من شعبان، وكانت ليلة الجمعة، بت ثملًا [٢] من الخمر؛ ولم أصلِّ فيها عشاء الآخرة. فرأيت فيما يرى النائم كأن القيامة قد قامت، ونفخ في الصور، وبعثرت القبور، وحُشر الخلائق، وأنا معهم. فسمعت حسًا من ورائي، فالتفت، فإذا أنا بتنِّينٍ [٣] أعظم ما يكون أسود أزرق قد فتح فاه مسرعًا نحوي. فمررت بين يديه هاربًا فزعًا مرعوبًا. فمررت في طريقي بشيخ نقيِّ الثوب طيب الرائحة؛ فسلمت عليه فردّ السلام. فقلت: أيها الشيخ! أجرني من هذا التنِّين أجارك الله، فبكى الشيخ وقال لي: أنا ضعيف وهذا أقوى مني وما أقدر عليه؛ ولكن مر وأسرع فلعل الله أن يتيح لك ما ينجيك منه. فوليت هاربًا على وجهي، فصعدتُ على شرف من شُرَف القيامة، فأشرفت على طبقات النيران، فنظرت إلى هولها، وكدت أهوي فيها من فزع التنِّين؛ فصاح بي صائح، ارجع فلست من أهلها! فاطمأننت إلى قوله ورجعت،

(١) «حلية الأولياء» (٦/ ١٤٩)، و«التوابين» (ص١٢٩).

(٢) أي: قد ذهب عقله من السكر، وأخذ منه الشرب مأخذًا.

(٣) التنِّين: نوع من الحيّات، عظيم كبير الحجم.

ورجع التنِّين في طلبي، فأتيت الشيخ فقلت: يا شيخ! سألتك أن تجيرني من هذا التنِّين فلم تفعل. فبكى الشيخ، وقال: أنا ضعيف ولكن سر إلى هذا الجبل، فإن فيه ودائع المسلمين، فإن كان لك

فيه وديعة فستنصرك. قال: فنظرت إلى جبل مستدير من فضة، وفيه كوى مخرمة وستور معلق، على كل خوخة وكوة مصراعان من الذهب الأحمر، مفصَّلة باليواقيت مكوكبة بالدر، على كل مصراع ستر من الحرير. فلما نظرت إلى الجبل وليت إليه هاربًا والتنِّين من ورائي؛ حتى إذا قربت منه صاح بعض الملائكة: ارفعوا الستور وافتحوا المصاريع وأشرفوا! فلعل لهذا البائس فيكم وديعة تجيره من عدوِّه. فإذا الستور قد رُفعت والمصاريع قد فتحت، فأشرف علي من تلك المخرَّمات أطفال بوجوه كالأقمار، وقرب التنِّين مني، فتحيرت في أمري. فصاح بعض الأطفال: ويحكم! أشرفوا كلكم فقد قرب منه عدوه. فأشرفوا فوجًا بعد فوج، وإذا أنا بابنتي التي ماتت قد أشرفت علي معهم. فلما رأتني بكت وقالت: أبي والله! ثم وثبت في كفة من نور كرمية السهم حتى مثلت ين يدَّي. فمدت يدها الشمال إلى يدي اليمنى فتعلَّقت بها، ومدت يدها اليمنى إلى التنِّين فولى هاربًا.

ثم أجلستني وقعدت في حجري وضربت بيدها اليمنى إلى لحيتي، وقالت: يا أبت، ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الحديد: ١٦].

فبكيت وقلت: يا بنية! وأنتم تعرفون القرآن؟ فقالت: يا أبت! نحن أعرف به منكم. قلت: فأخبريني عن التنِّين الذي أراد أن يهلكني. قالت: ذلك عملك السوء قوَّيته فأراد أن يغرقك في نار جهنم. قلت: فأخبريني

عن الشيخ الذي مررتُ به في طريقي. قالت: يا أبت! ذلك عملك الصالح أضعفته حتى لم يكن له طاقة بعملك السوء. قلت: يا بنية! وما تصنعون في هذا الجبل؟ قالت: نحن أطفال المسلمين قد أسكنا فيه إلى أن تقوم الساعة ننتظركم تقدمون علينا فنشفع لكم. قال مالك: فانتبهت فزعًا وأصبحت فأرقت المسكر وكسرت الآنية وتبت إلى الله عز وجل. وهذا كان سبب توبتي»[1].

توبة داود الطائي رحمه الله:

□ قال الحماني: «كان بدء توبة داود الطائي أنه دخل المقبرة فسمع امرأة عند قبر وهي تقول:

مُقيمٌ إلى أن يبعثَ الله خلقهُ	لقاؤكَ لا يُرْجى وأنت قريبُ
تزيدُ بلى في كلِّ يوم وليلةٍ	وتُسلى كما تبلى وأنت حبيبُ

□ وقال أبو نعيم: «قدم داود من السواد دلا يفقه؛ فلم يزل يتعلَّم ويتعبَّد حتى ساد أهل الكوفة».

□ وقال يوسف بن أسباط: «ورث داود عشرين دينارًا فأكلها في عشرين سنة».

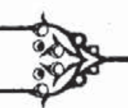
□ قال أبو نعيم: «كان داود يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز».

وقال: «بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية».

ودخل إليه يومًا رجل، فقال: «إن في سقف بيتك جذعًا قد انكسر. فقال: يا ابن أخي! إني في هذا البيت منذ عشرين سنة. ما نظرت إلى

---

(١) «التوابين» (ص١٣٠ - ١٣٢).



السقف. وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام[(١)]»[(٢)].

توبة القعنبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ قال أبو العبّاس أحمد بن محمد بن الصباح البزاز: «لم يرو القعنبي عن شعبة غير هذا الحديث الواحد وله شرح: حدثني بعض القضاة عن بعض ولد القعنبي بالبصرة، قال: كان أبي يشرب النبيذ ويصحب الأحداث. فدعاهم يومًا وقد قعد على الباب ينتظرهم. فمر شعبة على حماره والناس خلفه يهرعون. فقال: من هذا؟ قيل: شعبة. قال: وأيشُ شعبة؟ قالوا: محدِّث. فقام إليه وعليه إزار أحمر. فقال له: حدّثني. فقال له: ما أنت من أصحاب الحديث فأحدثك. فأشهر سكينه[(٣)] وقال: تحدّثني أو أجرحك؟ فقال له: حدثنا منصور عن ربعي عن أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: **«إذا لم تستحِ فاصنع ما شئت»**[(٤)]. فرمى سكينه ورجع إلى منزله. فقام إلى جميع ما كان عنده من الشراب فهراقه، وقال لأمه: الساعة أصحابي يجيئون، فأدخليهم وقدِّمي الطعام إليهم؛ فإذا أكلوا فخبريهم بما صنعتُ بالشراب حتى ينصرفوا، ومضى من وقته إلى المدينة، فلزم مالك بن أنس،فأثر عنه. ثم رجع إلى البصرة وقد مات شعبة، فما سمع منه غير هذا الحديث»[(٥)].

---

(١) فضول النظر: ما زاد عن الحاجة، وفضول الكلام: ما ليس له نفعٌ للمتكلِّم والسامع.

(٢) «التوابين» (ص١٣٢).

(٣) أشهر سكينه: أي سلَّه ورفعه.

(٤) رواه البخاري حديث رقم (٣٤٨٤).

(٥) «التوابين» (ص١٤٠).

توبة عكبر الكردي:

□ قال الإمام ابن قدامة: «قرأت في «الملتقط» عن بشر بن الحارث الحافي أنه قال: اعترضت عكبر الكردي، فقلت له: أيش كان أصل رجوعك إلى الله تعالى؟ فقال: كنت في بعض الدحال [1] أقطع الطريق، وكان فيها ثلاث نخلات، نخلة منهن لا تحمل وإذا بعصفور يأخذ من حمل النخلة التي تحمل رطبة فيدعها في التي لا تحمل. فلم أزل أعد عليه عشر مرار؛ فخطر بقلبي: قم وانظر! فنهضت، فإذا في رأس النخلة حية عمياء -يعني وهو يضع الرطبات في فيها- فبكيت، وقلت: سيدي! هذه حية قد أمر نبيُّك بقتلها؛ أعميتها وأقمت لها عصفورًا يقوم لها بالكفاية؛وأنا عبدك، أقر بأنك واحد، أقمتني لقطع الطريق وإخافة السبيل؟! فوقع في قلبي: يا عكبر! بابي مفتوح. فكسرتُ سيفي، ووضعتُ التراب على رأسي، وصحت: الإقالة! الإقالة! فإذا بهاتف يقول: قد أقلناك! قد أقلناك! فانتبه رفقائي، فقالوا: ما لك؟ قد أزعجتنا! فقلت: كنت مهجورًا، وقد صولحت. فقالوا: ونحن أيضًا كنا مهجورين، وقد صولحنا. فرمينا ثيابنا وأحرمنا كلنا. فما زلنا كذلك ثلاثة أيام نصيح ونبكي ونحن سُكارى حيارى. فوردنا اليوم الثالث على قرية؛ وإذا بامرأة عمياء جالسة على باب القرية. فقالت: فيكم عكبر الكردي؟ فقال أحدنا: نعم، لك حاجة؟ قالت: نعم؛ لي ثلاث ليال أرى النبي ﷺ في النوم، وهو

---

(١) الدَّحْل: - ويضم- نقب ضيق فمه، متسع أسفله، حتى يمشي فيه، وربما أنبت السدْرَ، أو مدخل تحت الجرف، أو في عرض خشب البئر في أسفلها، أو خرق في بيوت الأعراب يجعل لتدخله المرأة إذا دخل داخل. «القاموس المحيط» (ص١٢٩).

يقول: أعط عكبر الكردي ما خلّفه ولدك. فأخرجت لنا ستين شقّة. فائتزرنا ببعضها ودخلنا البادية إلى أن أتينا البيت»[١].

توبة سكران:

□ قال ابن باكويه: «وحدثنا بكران بن أحمد قال: سمعت يوسف بن الحسين يقول: كنت مع ذي النون المصري على شاطئ غدير فنظرت إلى عقرب أعظم ما يكون على شط الغدير واقفةٍ، فإذا بضفدع قد خرجت من الغدير، فركبتها العقرب فجعلت الضفدع تسبح حتى عبرت. فقال ذو النون: إن لهذه العقرب لشأنًا، فامض بنا، فجعلنا نقفو أثرها؛ فإذا رجل نائم سكران، وإذا حية قد جاءت فصعدت من ناحية سرته إلى صدره وهي تطلب أُذُنَهُ، فاستحكمت العقرب من الحية فضربتها، فانقلبت وانفسخت. ورجعت العقرب إلى الغدير، فجاءت الضفدع فركبتها فعبرت، فحرك ذو النون الرجل النائم. ففتح عينيه؛ فقال: يا فتى! انظر مما نَّجاك الله: هذه العقرب جاءت فقتلت هذه الحية التي أرادتك. ثم أنشأ ذو النون يقول:

يا غافلًا والجليلُ يَحرُسُه ... من كلِّ سُوءٍ يدبُّ في الظُّلَم
كيف تَنَامُ العُيُونُ عن ملك ... تأتِيه مِنه فَوَائِدُ النِّعم

فنهض الشاب وقال: إلهي! هذا فعلك بمن عصاك، فكيف رفقك بمن يطيعك؟ ثم ولَّى، فقلتُ: إلى أين؟ قال: إلى البادية، والله لا عُدتُ إلى المُدُن أبدًا»[٢].

---

(١) «التوابين» (ص١٤١).
(٢) المصدر السابق (ص١٤٣).

توبة الأمير حميد بن جابر:

□ قال إبراهيم بن بشّار: «كنت يومًا مارًّا مع إبراهيم -يعني بن أدهم- في صحراء، فأتينا على قبر مسنَّم، فترحم عليه وبكى. فقلت: قبرُ من هذا؟ فقال: هذا قبر حميد بن جابر أمير هذه المدن كلها. كان غرقًا في بحار الدنيا، فأخرجه الله تعالى منها واستنقذه[1]. ولقد بلغني أنه سُرّ يومًا بشيء من ملاهي ملكه ودنياه وغروره وفتنته. ثم نام في مجلسه ذلك مع من يخصّه من أهله، فرأى في منامه رجلًا واقفًا على رأسه، بيده كتاب. فناوله، ففتحه، فإذا فيه كتاب بالذهب مكتوب: لا تؤثرن فانيًا على باقٍ ولا تغترْنّ بملكك وقدرتك وسلطانك وخدمك وعبيدك ولذاتك وشهواتك، فإن الذي أنت فيه جسيم لولا أنه عديم، وهو مُلك لولا أن بعده هُلك، وهو فرح وسرور لولا أنه لهو غرور، وهم يوم لو كان يُوثق له بغد، فسارع إلى أمر الله تعالى، فإن الله تعالى قال: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣ ﴾ [آل عمران].

قال: فانتبه فَزِعًا، وقال: هذا تنبيه من الله عَزَّ وَجَلَّ وموعظة فخرج من ملكه لا يُعلم به، وقصد هذا الجبل، فتعبد فيه، فلما بلغني قصته وحُدِّثت بأمره، قصدته، فسألته، فحدثني ببدء أمره، وحدثته ببدء أمري، فما زلت أقصده حتى مات، ودُفن هاهنا، فهذا قبره رَحِمَهُ اللَّهُ»[2].

---

(١) أي: أنقذه.

(٢) «التوابين» (ص١٠٠- ١٠١).

توبة عبد الله بن مرزوق رَحِمَهُ اللَّهُ:

□ كان عبد الله بن مرزوق رَحِمَهُ اللَّهُ مع المهدي في دنيا واسعة. فشرب ذات يوم على لهوٍ وسماع، فلم يصلِّ الظهر والعصر والمغرب، وفي كل ذلك تنبِّهه جارية حظية عنده، فلما جاز وقت العشاء جاءت الجارية بجمرة فوضعتها على رجله، فانزعج وقال: ما هذا؟ قالت: جمرة من نار الدنيا، فكيف تصنع بنار الآخرة؟ فبكى بكاءً شديدًا، ثم قام إلى الصلاة.

ووقع في نفسه مما قالت الجارية، فلم يرَ شيئًا ينجيه إلَّا مفارقة ما هو فيه من ماله. فأعتق جواريه وتحلل م معامليه وتصدّق بما بقي، حتى صار يبيع البقل، وتبعته على ذلك الجارية. فدخل عليه سفيان بن عيينة وفضيل ابن عياض فوجدا تحت رأسه لَبِنَةً وليس تحته شيء. فقال له سفيان: إنه لم يَدَعْ أحد لله شيئًا إلَّا عوضه الله منه بدلًا، فما عوّضك مما تركت له؟ قال: الرضى بما أنا فيه»[1].

توبة جعفر بن حرب رَحِمَهُ اللَّهُ:

وذكر أبو القاسم التنوخي عن أبيه أن جعفر بن حرب كان يتقلد كبار الأعمال للسلطان. وكانت نعمته تقارب نعمة الوزارة في غاية الوفور، ومنزلته بحالها في الجلالة. فسمع رجلًا يقرأ: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]. فصاح: اللهم بلى! فكررها دفعات وبكى.

ثم نزل عن دابته ونزع ثيابه، ودخل إلى دِجْلة واستتر بالماء، ولم يخرج منه حتى فرّق جميع ماله في المظالم التي كانت عليه وردّها وتصدّق بالباقي.

---

(١) المصدر السابق (ص١٠٧).

فاجتاز رجل فرآه في الماء قائمًا -وسمع بخبره- فوهب له قميصًا ومئزرًا فاستتر بهما وخرج، وانقطع إلى العلم والعبادة حتى مات»[(١)].

توبة جارية من بنات الكبار على يد أبي شعيب البراثي وزواجها منه:

□ قال الجُنيد: «كان أبو شعيب البراثي أول من سكن براثي في كوخ يتعبد فيه. فمرّت بكوخه جارية من بنات الكبار كانت رُبيت في قصور الملوك. فنظرت إلى أبي شعيب فاستحسنت حاله وما كان عليهن فصارت كالأسير له، فعزمت على التجرد من الدنيا والاتصال بأبي شعيب فجاءت إليه، وقالت: أريد أن أكون لك خادمة. فقال لها: إن أردت ذلك فغيري من هيئتك وتجردي عما أنت فيه حتى تصلحي لما أردت. فتجردت عن كل ما تملكه ولبست ثياب النساك وحضرته، فتزوجها. فلما دخلت الكوخ رأت قطعة خصاف في مجلس أبي شعيب تقيه النَّدي. فقالت: ما أنا بمقيمة فيها حتى تُخرج ما تحتك، لأني سمعتك تقول: إن الأرض تقول: يا ابن آدم! تجعل اليوم بيني وبينك حجابًا وأنت غدًا في بطني؟ فما كانت لأجعل بيني وبينها حجابًا، فأخذ أبو شعيب الخصافَ فرمى بها. فمكثت معه سنين كثيرة تتعبد أحسن عبادة، وتوفيا على ذلك متعاونين»[(٢)].

توبة الخليفة العباسي الواثق بالله وابنه المهتدي بالله:

□ قال صالح بن علي بن يعقوب الهاشمي: «حضرتُ المهتدي بالله أمير المؤمنين وجلس للنظر في أمور المظلومين في دار العامة. فنظرت إلى قصص الناس تُقرأ عليه من أولها إلى آخرها؛ فيأمر بالتوقيع عليها، وينشأ

---

(١) المصدر السابق (ص١٠٦).

(٢) «التوابين» (ص١٢٤).

الكتابُ عليها وتحرَّر، وتُختم وتُرفع إلى صاحبها بين يديه. فسرّني ذلك؛ واستحسنت ما رأيتُ. فجعلتُ أنظر إليه؛ ففطن ونظر إليّ، فغضضت عنه، حتى كان ذلك مني ومنه مرارًا ثلاثًا: إذا نظر غضضت، وإذا شُغل نظرت. فقال لي: يا يصالح! قلت: لبيك يا أمير المؤمنين! وقمت قائمًا. فقال: في نفسك منا شيء تريد –أو قال– تحبّ أن تقوله؟ قلتك نعم يا سيدي! فقال لي: عد إلى موضعك. فَعُدْتُ؛ حتى إذا قام، قال للحاجب: لا يبرح صالح.

فانصرف الناس؛ ثم أذنَ لي دخلتُ فدعوتُ له، فقال لي: اجلس. فجلستُ، فقال: يا صالح تقول لي ما دار في نفسك أو أقول أنا ما دار في نفسي أنه دار في نفسك؟ قلت: يا أمير المؤمنين! ما تعزم عليه وتأمر به، قال: أقول أنا: إنه دار في نفسي أنك استحسنت ما رأيت منا، فقلت: أي خليفة خليفتنا إن لم يكن يقول: القرآن مخلوقٌ؟ فورد على قلبي أمر. عظيم؛ ثم قلتُ: يا نفس! هل تموتين قبل أجلك؟ وهل تموتين إلَّا مرة؟ وهل يجوز الكذب في جد أو هزل؟ فقلت: يا أمير المؤمنين! ما دار في نفسي إلَّا ما قلت. ثم أطرق مليًا وقال: ويحك! اسمع مني ما أقول، فوالله لتسمعنّ الحق، فسُرّي عنّي فقلت: يا سيدي! ومن أولى بقول الحق منك وأنت خليفة رب العالمين وابن عم سيد المرسلين؟ فقال: ما زلت أقول: إن القرآن مخلوق صدرًا من أيام الواثق، حتى أقدم أحمد بن أبي داود علينا شيخًا من أهل الشام من أهل «أَذَنَة» فأدخل الشيخ على الواثق مقيدًا، وهو جميل الوجه تام القامة حسن الشيبة. فرأيت الواثق قد استحيى منه ورق له. فما زال يدنيه ويقربه حتى قرب منه. فسلم الشيخ فأحسن، ودعا فأبلغ. فقال له الواثق: اجلس، فجلس، فقال له: يا شيخ! ناظر ابن أبي

داود على ما يناظرك عليه. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! ابن أبي داود يصبي ويضُعف عن المناظرة. فغضب الواثق وعاد مكان الرقة غضبًا عليه.

قال الواثق: أبو عبد الله بن أبي داود يصبي ويضعف عن مناظرتك أنت؟ فقال الشيخ: هوِّن عليك يا أمير المؤمنين ما بك، فائذن في مناظرته. فقال الواثق: ما دعوتك إلَّا للمناظرة. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! إن رأيت أن تحفظ علي وعليه ما نقول. قال: أفعل.

قال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن مقالتك هذه، هي مقالة واجبة داخلة في عقد الدِّين فلا يكون الدِّين كاملًا حتى يقال فيه بما قلت؟ قال: نعم. قال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن رسول الله ﷺ حين بعثه الله إلى عباده، هل ستر شيئًا مما أمره الله به في أمر دينهم؟ قال: لا. فقال الشيخ: فدعا رسول الله ﷺ الأمة إلى مقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي داود. فقال الشيخ: تكلم! فسكت. فالتفت إلى الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين! واحدة. فقال الواثق: واحدة.

فقال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن الله عَزَّ وَجَلَّ حين أنزل القرآن على رسول الله ﷺ فقال: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾ [المائدة: ٣]. هل كان الله تعالى الصادق في إكمال دينه أو أنت الصادق في نقصانه حتى يقال فيه بمقالتك هذه؟ فسكت ابن أبي داود. فقال الشيخ: أجب يا أحمد! فلم يُجب، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! اثنتان. فقال الواثق: اثنتان، فقال الشيخ: يا أحمد! أخبرني عن مقالتك هذه، هل علمها رسول الله ﷺ أم جهلها؟ فقال ابن أبي داود: علمها. قال: فدعا الناس إليها؟ فسكت، فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! ثلاث.

فقال الواثق: ثلاث. فقال الشيخ: يا أحمد! فاتَّسع لرسول الله ﷺ أن علمها وأمسك عنها كما زعمت ولم يطالب أمته بها؟ قال: نعم. قال الشيخ: واتَّسع لأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنهم؟ قال ابن أبي داود: نعم. فأعرض الشيخ عنه وأقبل على الواثق، فقال: يا أمير المؤمنين! قد قدمت القول: إن أحمد يصبي ويضعف عن المناظرة؛ يا أمير المؤمنين! إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة بما زعم هذا أنه اتَّسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي، فلا وسع الله على من لم يسع له ما اتَّسع لهم.

فقال الواثق: نعم، إن لم يتَّسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول الله ﷺ ولأبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم فلا وسع الله علينا؛ اقطعوا قيد الشيخ! فلما قُطع القيد ضرب الشيخ بيده إلى القيد حتى يأخذه. فجاذبه الحداد عليه. فقال الواثق: دع الشيخ يأخذه! فأخذه فوضعه في كمه. فقال له الواثق: يا شيخ! لم جاذبت الحدّاد عليه؟ قال: لأني نويت أن أتقدم إلى من أوصى إليه إذا أنا مت أن يجعله بيني وبين كفني حتى أخاصم به هذا الظالم عند الله يوم القيامة، وأقول: يا رب! سل عبدك هذا لم قيَّدني وروَّع أهلي وولدي وإخواني بلا حق أوجب ذلك علي، وبكى الشيخ وبكى الواثق وبكينا، ثم سأله الواثق أن يجعله في حل وَسَعةٍ بما ناله، فقال الشيخ: والله يا أمير المؤمنين، لقد جعلتك في حلّ وسَعَةٍ من أول يوم إكرامًا لرسول الله ﷺ، إذ كنت رجلًا من أهله.

فقال الواثق: لي إليك حاجة. فقال الشيخ: إن كانت ممكنة فعلتُ. فقال له الواثق: تُقيمُ قِبَلنا فننتفع بك وتنتفع بنا. فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! إن ردَّك إياي إلى الموضع الذي أخرجني عنه هذا الظالم؛ أنفع لك

من مقامي عليك؛ وأخبرك بما في ذلك: أصير إلى أهلي، وولدي فأكف دعاءهم عليك، فقد خلَّفتهم على ذلك. فقال له الواثق: فتقبل منا صلةً تستعين بها على دهرك؟ فقال: يا أمير المؤمنين! لا تَحُلُّ لي، أنا عنها غني وذو مرة سوي فقال: سل حاجة. فقال: أو تقضيها يا أمير المؤمنين؟ قال: نعم. قال: تأذن أن يُخلى لي السبيل الساعة إلى الثغر. قال: قد أذنت لك فسلمَّ وخرج. قال المهتدي بالله: فرجعتُ عن هذه المقالة، وأظن أن الواثق رجع عنها منذ ذلك الوقت»[1].

قوة العزيمة دافعٌ إلى التوبة:

□ عن أنس رضي الله عنه قال: «كنت ساقي القوم يوم حُرِّمت الخمر في بيت أبي طلحة، وما شرابهم إلَّا الفضيخ، البسرُ والتمر، فإذا مناد يُنَادي، فقال: اخرج فانظر، فخرجتْ فإذا منادٍ يُنادي: ألا إنَّ الخمر قد حُرِّمت، قال: فَجَرَتْ في سِكَكِ المَدِينَةِ، فقال لي أبو طلحة: اخرجْ فاهْرِقْها، فهرقتُها»[2].

قالوا عن التوبة:

□ عن الشعبي قال: «كان يقال: التائب من الذنب كمن لا ذنب له، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين؛ فإذا أحب الله عبدًا، لم يضره ذنب؛ وذنب لم يضر، كذنب لم يفعل»[3].

□ عن مغيث بن سمي قال: «كان رجل فيمن كان قبلكم يعمل بالمعاصي؛ فادَّكر يومًا، فقال: اللهم غفرانك؛ فغفر له»[4].

---

(١) «التوابين» (ص١٢٤ - ١٢٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٨٢)، ومسلم (١٩٨٠) واللفظ لمسلم..

(٣) «الحلية» (٤/ ٣١٨).

(٤) «حلية الأولياء» (٦/ ٦٨).

□ عن عون بن عبد الله بن عتبة قال: «جالسوا التوابين، فإنهم أرق الناس قلوبًا»(١).

□ عن أحمد بن عاصم قال: «هذه غنيمة باردة: أصلح فيما بقي، يغفر لك ما مضى»(٢).

□ عن عون بن عبد الله قال: «جرائم التوابين: منصوبة بالندامة نصب أعينهم، لا تقر للتائب في الدنيا عين كلما ذكر ما اجترح على نفسه»(٣).

□ عن أبي ذر قال: «هل ترى الناس ما أكثرهم؟ ما فيهم خير، إلَّا تقي أو تائب»(٤).

□ عن شفي الأصبحي قال: «ترك الخطيئة أيسر من طلب التوبة»(٥).

□ عن ميمون بن مهران قال: «من أساء سرًا، فليتب سرًا؛ ومن أساء علانية، فليتب علانية؛ فإن الله يغفر ولا يعير، والناس يعيرون ولا يغفرون»(٦).

□ عن سلام قال: «دخلت على مالك بن دينار ليلًا، وهو في بيت بغير سراج، وفي يده رغيف يكدمه؛ فقلنا له: يا أبا يحيى، ألا سراج؟ ألا شيء تضع عليه خبزك؟ فقال: دعوني، فوالله إني لنادم على ما مضى»(٧).

---

(١) المصدر السابق (٤/ ٢٤٩).
(٢) المصدر السابق (٩/ ٢١٨).
(٣) «الحلية» (٤/ ٢٥١).
(٤) المصدر السابق (١/ ١٦٤).
(٥) المصدر السابق (٥/ ١٦٧).
(٦) المصدر السابق (٤/ ٩٢).
(٧) «الحلية» (٦/ ١٨٩).

□ عن أبي حازم قال: «نحن لا نريد أن نموت حتى نتوب؛ ونحن لا نتوب حتى نموت؛ واعلم، أنك إذا مت، لم ترفع الأسواق بموتك؛ إن شأنك صغير، فاعرف نفسك»(١).

□ عن ميمون بن مهران قال: «لا خير في الدنيا إلَّا لجرين: رجل تائب، ورجل يعمل في الدرجات»(٢).

□ عن سعيد الجديري قال: «قلت للحسن: يا أبا سعيد، الرجل يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، ثم يذنب ثم يتوب، حتى متى؟ قال: ما أعلم هذا إلَّا أخلاق المؤمنين»(٣).

□ عن عكرمة قال: «إن الشيطان ليزين للعبد الذنب حتى يكسبه، فإذا كسبه تبرأ منه؛ ولا يزال العبد يبكي منه، ويتضرع إلى ربه، ويستكين؛ حتى يغفر له ذلك الذنب وما قبله، فيندم الشيطان على ذلك الذنب حين أكسبه إياه، فغفر له الذنب وما قبله»(٤).

□ عن حكيم بن جعفر قال: «سمعت أبا عبد الله البراثي يقول: سمعت رجلًا من العباد يبكي، ويقول في بكائه: بكت قلوبنا إلى الذنوب ارتياحًا إلى مواقعتها، ثم بكت عيوننا حزنًا على الذي أتينا منها؛ فليت شعري، أيها المصيب برحمته من يشاء أحدُ البُكائَيْنِ مستولي علينا غدًا في عرصة القيامة عندك؛ لئن كنت لم تقبل التوبة يا كريم، لقد حانت لنا إليك الأوبة يا رحيم، ولئن أعرضت بوجهك، فبحق أعرضت عن المعرضين

---

(١) «حلية الأولياء» (٣/ ٢٣٢).

(٢) «الحلية» (٤/ ٨٣).

(٣) «الحلية» (٦/ ٢٠١).

(٤) «الحلية» (٣/ ٣٤٤- ٣٤٥).

عنك، ولئن تطولت بمنّك، ومننت بطولك علينا، فلقديمًا ما كان ذلك منك على المذنبين. قال: وسمعته يقول: أوثقتنا عقد الآثام، فنحن في الدنيا حيارى، قد ضلت عقولنا عن الله عَزَّ وَجَلَّ»[١].

◻ قال عون بن عبد الله: «قلب التائب بمنزلة الزجاجة، يؤثر فيها جميع ما أصابها، والموعظة إلى قلوبهم سريعة، الذنوب بالتوبة، فلرب تائب دعته توبته إلى الجنة حتى أوفدته عليها؛ وجالسوا التوابين، فإن رحمة الله إلى التوابين أقرب»[٢].

◻ عن عاصم بن رجاء بن حيوة قال: «كان عمر بن عبد العزيز يخطب، فيقول: أيها الناس، من ألمّ بذنب، فليستغفر الله وليتب؛ فإن عاد، فليستغفر الله وليتب؛ فإن عاد، فليستغفر الله وليتب؛ فإنما هي خطايا مطوقة في أعناق الرجال، وإن الهلاك كل الهلاك الإصرار عليها»[٣].

توبة العبد بين توبتيْن من الله عَزَّ وَجَلَّ:

◻ قال الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وتوبة العبد إلى الله محفوفة بتوبة من الله عليه قبلها، وتوبة منه بعدها. فتوبته بين توبتين من ربه، سابقة ولا حقة، فإنه تاب عليه أولًا إذنًا وتوفيقًا وإلهامًا، فتاب العبد، فتاب الله عليه ثانيًا، قبولًا وإثابة. قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ

(١) «الحلية» (٦/ ٢٩).
(٢) «الحلية» (٤/ ٢٥٠ - ٢٥١).
(٣) «الحلية» (٥/ ٢٩٦).

﴿(١١٧)﴾ [التوبة]، فأخبر سبحانه أن توبته عليهم سبقت توبتهم، وأنها هي التي جعلتهم تائبين. فكانت سببًا مقتضيًا لتوبتهم، فدل على أنهم ما تابوا حتى تاب الله تعالى عليهم، والحكم ينتفي لانتفاء علته.

ونظير هذا: هدايته لعبده قبل الاهتداء، فيهتدي بهدايته. فتوجب له تلك الهداية هداية أخرى يثيبه الله بها هداية على هدايته، فإن من ثواب الهدي: الهدي بعده، كما أن من عقوبة الضلالة: الضلالة بعدها، قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧]، فهداهم أولًا فاهتدوا، فزادهم هدى ثانيًا. وعكسه في أهل الزيغ كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ﴾ [الصف: ٥] فهذه الإزاغة الثانية عقوبة لهم على زيغهم.

وهذا القدر من سر اسميه «الأول، والآخر» فهو المعدُّ. وهو الممدّ، ومنه السبب والمسبب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه، كما قال أعرف الخلق به: «**وأعوذ بك منك**»، والعبد تواب، والله تواب، فتوبة العبد: رجوعه إلى سيده بعد الإباق، وتوبة الله نوعان: إذن وتوفيق، وقبول وإمداد»[1].

تبديل السيئات بالحسنات عند التوبة من أعظم البشارة:

* قال تعالى: ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا (٧٠) ﴾ [الفرقان].

□ قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وهذا من أعظم البشارة للتائبين إذا اقترن بتوبتهم إيمان وعمل صالح، وهو حقيقة التوبة.

قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: «ما رأيت النبي ﷺ فرح بشيء قط فرحه بهذه

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣١٢- ٣١٣).



الآية لما أنزلت، وفرحه بنزول ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح]».

واختلفوا في صفة هذا التبديل، وهل هو في الدنيا، أو في الآخرة؟ على قولين:

□ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه: هو تبديلهم بقبائح أعمالهم محاسنها، فبدلهم بالشرك إيمانًا، وبالزنا عِفَّة وإحصانًا، وبالكذب صدقًا، وبالخيانة أمانة.

فعلى هذا معنى الآية: أن صفاتهم القبيحة، وأعمالهم السيئة، بدلوا عوضها صفات جميلة، وأعمالًا صالحة، كما يدل المريض بالمرض صحة، والمبتلى ببلائه عافية.

□ وقال سعيد بن المسيب رحمه الله، وغيره من التابعين: «هو تبديل الله سيئاتهم التي عملوها بحسنات يوم القيامة، فيعطيهم مكان كل سيئة حسنة».

واحتج أصحاب هذا القول بما روى الترمذي في جامعه: حدثنا الحسين بن حريث قال: حدثنا وكيع قال: حدثنا الأعمش عن المعرور بن سويد عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعلم آخر رجل يخرج من النار: يؤتى بالرجل يوم القيام، فيقال: اعرضوا عليه صغار ذنوبه، ويخبأ عنه كبارها، فيقال: عملت يوم كذا كذا وكذا. وهو مقر لا ينكر، وهو مشفق من كبارها. فيقال: أعطوه مكان كل سيئة عملها حسنة. فيقول: إن لي ذنوبًا ما أراها هاهنا**». قال أبو ذر رضي الله عنه: فلقد رأيت رسول الله ﷺ ضحك حتى بدت نواجذه».

فهذا حديث صحيح، ولكن في الاستدلال به على صحة هذا القول

نظر. فإن هذا قد عذب بسيئاته ودخل بها النار، ثم بعد ذلك أخرج منها، وأعطى مكان كل سيئة حسنة، صدقة تصدق الله بها عليه ابتداء بعدد ذنوبه، وليس في هذا تبديل تلك الذنوب بحسنات، إذ لو كان كذلك لما عوقب عليها كما لم يعاقب التائب. والكلام إنما هو في تائب أثبت له مكان كل سيئة حسنة، فزادت حسناته، فأين في هذا الحديث ما يدل على ذلك؟

والناس استقبلوا هذا الحديث مستدلين به في تفسير هذه الآية على هذا القول، وقد علمت ما فيه. لكن للسلف غور ودقة فهم لا يدركها كثير من المتأخرين.

فالاستدلال به صحيح، بعد تمهيد قاعدة، إذا عرفت عرف لطف الاستدلال به ودقته، وهي أن الذنب لا بد له من أثر، وأثره يرتفع بالتوبة تارة، وبالحسنات الماحية تارة، وبالمصائب المكفرة تارة، وبدخول النار ليتخلص من أثره تارة. وكذلكم إذا اشتد أثره، ولم تقو تلك الأمور على محوه؛ فلابد إذًا من دخول النار لأن الجنة لا يكون فيها ذرة من الخبيث، ولا يدخلها إلَّا من طاب من كل وجه، فإذا بقي عليه شيء من خبث الذنوب أدخل كِيْرَ الامتحان، ليخلص ذهب إيمانه من خبثه؛ فيصلح حينئذ لدار الملك.

إذا علم هذا فزوال موجب الذنب وأثره تارة يكون بالتوبة النصوح، وهي أقوى الأسباب، وتارة يكون باستيفاء الحق منه وتطهيره في النار. فإذا تطهر بالنار، وزال أثر الموسخ والخبث عنه، أعطى مكان كل سيئة حسنة، فإذا تطهر بالتوبة النصوح، وزال عنه بها أثر وسخ الذنوب وخبثها، كان أولى بأن يعطى مكان كل سيئة حسنة؛ لأن إزالة التوبة لها الوسخ والخبث أعظم من إزالة النار، وأحب إلى الله، وإزال النار بدل

منها، وهي الأصل: فهي أولى بالتبديل مما بعد الدخول. يوضحه:

وهو أن التائب قد بَدَّل كل سيئة بندمه عليها حسنة، إذ هو توبة تلك السيئة، والندم توبة، والتوبة من كل ذنب حسنة، فصار كل ذنب عمله زائلًا بالتوبة التي حلت محله وهي حسنة. فصار له مكان كل سيئة حسنة بهذا الاعتبار، فتأمله فإنه من ألطف الوجو.

وعلى هذا فقد تكون هذه الحسنة مساوية في القدر لتلك السيئة، وقد تكون دونها، وقد تكون فوقها. وهذا بحسب نصح هذه التوبة، وصدق التائب فيها، وما يقترن بها من عمل القلب الذي تزيد مصلحته ونفعه على مفسدة تلك السيئة. وهذا من أسرار مسائل التوبة ولطائفها. يوضحه:

أن ذنب العارف بالله وبأمره قد يترتب عليه حسنات أكبر منه وأكثر، وأعظم نفعًا، وأحب إلى الله من عصمته من ذلك الذنب: من ذل وانكسار وخشية، وإنابة وندم، وتدارك بمراغمة العدو بحسنة أو حسنات أعظم منه، حتى يقول الشيطان: يا ليتني لم أوقعه فيما أوقعته فيه، ويندم الشيطان على إيقاعه في الذنب، كندامة فاعله على ارتكابه، لكن شتان ما بين الندمين. والله تعالى يحب من عبده مراغمة عدوه وغيظه، كما تقدم أن هذا من العبودية من أسرار التوبة؛ فيحصل من العبد مراغمة العدو بالتوبة والتدارك، وحصول محبوب الله من التوبة، وما يتبعها من زيادة الأعمال هنا، ما يوجحب جعل مكان السيئة حسنة بل حسنات.

* وتأمل قوله: ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧] ولم يقل مكان كل واحدة واحدة فهذا يجوز أن يبدل السيئة الواحدة بعدة حسنات بحسب حال المبدل.

• وأما في الحديث: فإن الذي عُذِّب على ذنوبه لم يبدلها في الدنيا

بحسنات، من التوبة النصوح وتوابعها. فلم يكن له ما يجعل مكان السيئة حسنات. فأعطى مكان كل سيئة حسنة واحدة. وسكت النبي ﷺ عن كبر ذنوبه. ولما انتهى إليها ضحك، ولم يبين ما يفعل الله بها، وأخبر أن الله يبدل مكان كل صغيرة حسنة، ولكن في الحديث إشارة لطيفة إلى أن هذا التبديل يعم كبارها وصغارها من وجهين:

أحدهما: قوله: «اخبئوا عنه كبارها» فهذا إشعار بأنه إذا رأى تبديل الصغائر ذكرها، وطمع في تبديلها، فيكون تبديلها أعظم موقعًا عنده من تبديل الصغائر. وهو به أشد فرحًا واغتباطًا.

والثاني: ضحك النبي ﷺ عند ذكر ذلك، وهذا الضحك مشعر بالتعجب مما يفعل به من الإحسان، وما يُقِرُّ به على نفسه من الذنوب، من غير أن يُقَرَّر عليها ولا يسأل عنها، وإنما عرضت عليه الصغائر.

فتبارك الله رب العالمين، وأجود الأجوَدِين، وأكرم الأكرمين، البر اللطيف، المتودد إلى عباده بأنواع الإحسان، وإيصاله إليهم من كل طريق بكل نوع، لا إله إلَّا هو الرحمن الرحيم»[(١)].

• عن أبي طويلٍ شطبٍ الممدودِ رضي الله عنه [(٢)] أنهُ قال: أتيت النبي ﷺ، فقال: «أرأيتَ مَن عَمِلَ الذنوبَ كلَّها ولم يترُكْ منها شيئًا، وهو في ذلك لم

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠١- ٣٠٤).

(٢) ذكر المنذري أن «شطب» ذكره غير واحد في الصحابة إلا أنَّ البغوي ذكر في معجمه أن الصواب عن عبد الرحمن بن جبير بن نفير مُرسلاً: أن رجلاً أتى النبي ﷺ طويلٌ شَطْبٌ، والشطب في اللغة: الممدود فصحّفه بعض الرواة وظنه اسم رجل راجع الترغيب والترهيب» (٤/ ١٣٣- ١٣٦).

يترُكْ حاجةً ولا دَاجَةً(١) إلَّا أتاها، فَهَلْ لذلك من تَوبةٍ؟ قال: «**فهل أَسْلَمْتَ**». قال: أمَّا أنا فأشهَدُ أَن لا إله إلَّا اللهُ وأنَّكَ رسولُ الله، قال: «**تَفْعَلُ الخيْرَاتِ وتَتْرُكُ السَّيِّئاتِ فيجعَلُهُنَّ اللهُ لكَ خيْرَاتٍ كلهُنَّ**». قال: وغدراتي وفَجَرَاتِي. قال: «**نَعَمْ**». قال: الله أكبرُ فما زَالَ يُكبِّرُ حتى تَوَارَى»(٢).

• عن أبي مُوسَى الأشعريِّ رضي الله عنه قالَ: كانَ رسُولُ الله ﷺ يُسمِّي لنا نفسَهُ أسماءً، فقالَ: «**أنا محمدٌ، وأحمدُ، والمقُفِّي**(٣)، **والحَاشِرُ، ونبيُّ التَّوْبةِ**(٤)، **ونَبِيُّ الرَّحمَةِ**»(٥).

الاستغفار والتوبة:

□ وأما «الاستغفار» فهو نوعان، مفرد ومقرون بالتوبة. فالمفرد: كقول نوح عليه السلام لقومه: ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١﴾ [نوح]. وكقوله صالح لقومه: ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝٤٦﴾ [النمل]. وكقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٩﴾ [البقرة]. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ۝٣٣﴾ [الأنفال]. والمقرون كقوله

---

(١) الداجة: الحاجة الكبيرة.

(٢) ذكره في «الترغيب والترهيب» وقال: رواه البزار الطبراني واللفظ له وهذا إسناد جيد قوي (٤/١١٢- ١١٣). وقال الهيثمي في «مجمع الزائد» (١/ ٣٢): ورجال البزار رجال الصحيح غير محمد بن هارون أبي نشيط وهو ثقة.

(٣) المقفي: الآخر والمتبع للأنبياء.

(٤) نبي التوبة: جاء بالتوبة.

(٥) رواه مسلم (٢٣٥٥).

تعالى: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ﴾ [هود: ٣]. وقوله هود عليه السلام لقومه: ﴿ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴾ [هود: ٥٢]. وقول صالح لقومه ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾ ﴾ [هود]. وقول شعيب عليه السلام: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾ ﴾ [هود]. فالاستغفار المفرد كالتوبة. بل هو التوبة بعينها. مع تضمنه طلب المغفرة من الله، وهو محو الذنب، وإزالة أثره، ووقاية شره، لا كما ظنه بعض الناس: أنها الستر؛ فإن الله يستر على من يغفر له ومن لا يغفر له، ولكن الستر لازم مسماها أو جزؤه، فدلالتها عليه إما بالتضمن وإما باللزوم.

وحقيقتها: وقاية شر الذنب. ومنه المغفر، لما يقي الرأس من الأذى، والستر لازم لهذا المعنى. وإلَّا فالعمامة لا تسمى مِغفرًا، ولا القَبع ونحوه مع ستره، فلابد في لفظ «المغفر» من الوقاية. وهذا الاستغفار هو الذي يمنع العذاب في قوله: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [الأنفال]. فإن الله لا يعذب مستغفرًا، وأما من أصر على الذنب، وطلب من الله مغفرته، فهذا ليس باستغفار مطلق، ولهذا لا يمنع العذاب، فالاستغفار يتضمن التوبة، والتوبة تتضمن الاستغفار، وكل منهما يدخل في مسمى الآخر عند الإطلاق.

وأما عند اقتران إحدى اللفظين بالأخرى. فالاستغفار: طلب وقاية شر ما مضى. والتوبة: الرجوع وطلب وقاية شر ما يخافه في المستقبل من سيئات أعماله.

فهاهنا ذنبان: ذنب قد مضى. فالاستغفار منه: طلب وقاية شره،

وذنب يخاف وقوعه، فالتوبة: العزم على أن لا يفعله، والرجوع إلى الله يتناول النوعين: رجوع إليه ليقيه شر ما مضى، ورجوع إليه ليقيه شر ما يستقبل من شر نفسه وسيئات أعماله.

وأيضًا فإن المذنب بمنزلة من ركب طريقًا تؤديه إلى هلاكه، ولا توصله إلى المقصود. فهو مأمور أن يوليها ظهره، ويرجع إلى الطريق التي فيها نجاته. والتي توصله إلى مقصوده، وفيها فلاحه.

فها هنا أمران لابد منهما: مفارقة شيء، والرجوع إلى غيره، فخصت «التوبة» بالرجوع، و«الاستغفار» بالمفارقة. وعند إفراد أحدهما يتناول الأمرين، ولهذا جاء -والله أعلم- الأمر بهما مرتبًا بقوله: ﴿ وَٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾ فإنه الرجوع إلى طريق الحق بعد مفارقة الباطل.

وأيضًا فالاستغفار من باب إزلة الضرر، والتوبة طلب جلب المنفعة،فالمغفرة أن يقيه شر الذنب. والتوبة: أن يحصل له بعد هذا الوقاية ما يحبه. وكل منهما يستلزم الآخر عند إفراده. والله أعلم»[1].

□ قال محمود الوَّراق رَحِمَهُ اللهُ:

قَدِّمْ لنفسِكَ توبةً مَرْجُوَّةً	قَبْل المماتِ وقَبْلَ حبْسِ الألْسُنِ
بادِرْ بها غَلْقَ النُّفُوسِ فإنها	ذُخْرٌ وغُنْمٌ للمُنيب المحسنِ[2]

---

(١) «مدارج السالكين» (١/ ٣٠٧- ٣٠٩).

(٢) «تفسير القرطبي» (٥/ ٩٢).

وختامًا:

• قال رسول الله ﷺ: «**كلُّ ابن آدم خطَّاء وخير الخطائين التوَّابين**»[1].

✍ فالبدار البدار إلى التوبة مفتاح استقامه السائلين، ومطلع الأصطفاء والاجتباء للمقرَّبين.

---

(١) حسن: رواه أحمد (٣/ ١٩٨)، والترمذي (٢٤٩٩)، وابن ماجه (٤٢٥١)، وقال الترمذي: «حديث غريب»، وضعفه الشيخ شعيب الأرنؤوط، وحسنه الشيخ الألباني.